روايات مصرية

سافاري 50

قصة بوليسية

د. أحمد خالد توفيق

مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد ـ كما يقول الغلاف ـ كى يبقى حيًّا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهالٍ متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عادى جدًّا ، فقط وجد كثيرًا من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقى الأعضاء ..

هناك ـ كما قلنا ـ من العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًّا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كنوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شيء ..

1 . لقد عاد ..

لقد عاد بارتلييه يا شباب !...

يبدو أن الحياة سوف تشرق من جديد ..

مدير وحدة (سافارى – الكاميرون) البدين طيب القلب حار العواطف قد عاد .. أجرى جراحة القلب المفتوح فى باريس ، وبعد فترة نقاهة كاد يموت خلالها مرتين . عاد للوحدة أخيرًا شاحبًا وقد فقد عدة كيلوجرامات ، مما جعل جلد عنقه يتهدل . لكنه حى .. يضحك ويتكلم ويدير !

عاد (بارتلييه) يا شباب !

الشخص الذى جعل الحياة محتملة لكثيرين هنا ، وبرغم حاجته المزمنة لتبرير نفسه مما يعطى انطباعًا بضعف الشخصية أحيانًا ، فهو يظل رجلاً راقيًا ونبيلاً وعادلاً . يبدو أن علينا الاختيار بين الطيبين الشرفاء الضعيفين قليلاً ، وبين الأوغاد الأبالسة أقوياء الشخصية .. هذا هو الخيار الأبدى . عندما تقابل الخير العدوانى الكاسح عالى الصوت فلا تتخل عنه !! هذه فرصة نادرة !

عاد (بارتلييه) يا شباب !

عاد لوحدة سافارى من جديد فسُر الناس لأنهم تخلصوا أخيرًا من سيطرة باركر البريطانى اللعين المزعج بوجهه الأحمر وشاربه الأبيض الكث وعينيه الباردتين ، اللتين توحيان لى بعينى كونستابل بريطانى يشارك فى مذبحة دنشواى . وعرفت بالفعل أننى أحب هذا الرجل بارتلييه ، فقد جئت لسافارى وهو موجود .. وكنت أتمنى أن أتركها وهو موجود .. لربما طردنى هو بنفسه !.. لا أستبعد هذا فالرجل هدد بطردى ألف مرة من قبل ...

لا بأس .. إن كان من سيطردنى هو بارتلييه .

تذكرت كل المغامرات المشتركة معه وكل الخلافات ، وسرنى أننا سنعود لهذا. فقط أتمنى أن يبتعد عن قاتليه : كثرة العمل والطعام الجاهز الملىء بالدهون المشبعة .. رجل جالس طيلة اليوم ولا يتحرك ، ويتناول طعامه حيث هو ، من تلك الأطعمة التى تميز الحضارة الغربية .. بينما تنهال عليه المشاكل. هذا رجل لا تُرجى له حياة طويلة ، ولربما لا ترجى له صحة حسنة بتاتًا .

لكن هذا لا يهم .. سوف أستمتع بوجوده حتى الرمق الأخير له أو لى .

عاد (بارتلييه) يا شباب !

أقمنا له حفلاً لا بأس به ... عندما يجمع الحفل فنونًا أفريقية مرتجلة من بعض الأطباء الأفارقة ، وأداء أوبراليًا من طبيب إيطالى ، وأغنية روك

من طبيب أمريكى ، وعزفًا على الأرغن من ممرضة أسترالية. وعندما أغنى أنا (رحنا وجينا بالسلامة) بصوتى الخشن الفظيع ، فإن الحفل يكون ممتعًا مهما كان الأفراد غير محترفين . هذا عرض للعواطف لا المواهب..

سألنى عن سارة الصغيرة وطلب أن يرى صورها الجديدة ..

كانت فى السن التى تسمح لها بالجلوس .. مع التلفظ ببعض الآهات . الحق إنها كانت جميلة .. أخذت الكثير من أمها .. حتى (التشنيكة) ذاتها كانت تؤديها كثيرًا. لحسن الحظ أنها أخذت منى ملامح بسيطة جدًا .. وكنت فى قصة حب دائمة معها .

لكن سارة يمكن أن تنتظر فقد عاد بارتلييه .

استدعانى لمكتبه فى السابعة مساء كالعادة ، فهرعت هناك .. كان قد نحل وتهدل جلده كما قلت .. هناك هالات سود تحت عينيه . هو من هؤلاء الأشخاص الذين يكونون فى أفضل حالاتهم مع البدانة ، ويفقدون الكثير من مرحهم عندما يفقدون الوزن . صلاح جاهين مثال واضح لذلك فى مصر ، فقد فقد الكثير من مرحه وحبه للحياة مع الشحوم التى فقدها ..

كان يبتلع مجموعة من الأقراص ، وحكى لى عن الجراحة المعقدة التى مر بها فى فرنسا . ثم قال ضاحكًا :

ــ « المرضى أبطال فعلاً .. إنهم يتحملون الكثير .. ونحن لا ندرك ذلك .. »

قلت له :

ــ « هناك أشياء نكلف بها المرضى ولا ندرك مدى صعوبتها إلا عندما نجربها نحن .. الرنين المغناطيسى مثلاً تجربة عسيرة مخيفة ، لكننا نطلبه من المرضى كل يوم .. أعترف لك يا سيدى إننى ما زلت لا أشعر بعدم الراحة من الحقن ، وألح على الطبيب كى يبدل لى هذا العلاج . هناك أمور شبه مستحيلة مثل تحليل البراز .. أطلبه من مرضاى طيلة الوقت بينما يستحيل أن أقوم به لنفسى ! »

ضحك كثيرًا ولغده الذى صار مجوفًا كعرف ديك يهتز ، ثم قال :

ــ « هناك تحليل قاس جدًا هو تحليل سائل البروستاتا ... أفضل ألا أنجب للأبد ولا أترك طبيبًا يجريه لى ! »

ثم سألنى عن أسرتى وعن مصر .. لم تكن مصر فى أفضل حالاتها فى ذلك الوقت .. لهذا بدا قلقًا وراح يسألنى عن كل التفاصيل . ثم قال وهو يضحك :

ــ « المشاكل فى كل مكان .. سوف أنبهر كثيرًا إذا قابلت رجلاً بلا مشاكل .. »

ــ « هو على الأرجح رجل ميت يا سيدى .. غير أننى لا أعتقد أن مشاكلكم تقارن بما نعانيه فى العالم الثالث والرابع . فى السويد ينتحرون من أجل عدم فهمهم لمغزى الوجود .. فى مصر قد ينتحر البعض لأنهم عاجزون عن إطعام أطفالهم .. ومع ذلك مشاكلنا أفضل من سوانا .. لدينا فى مصر مشاكل صحية مع السمنة الناجمة عن الإفراط فى الأكل .. فى دول أفريقية كثيرة يموتون من الجوع ولا يفهمون معنى الشبع .. »

صب لنفسه بعض العصير ، ثم قال :

ــ « أنا مثلاً قد فقدت صديقًا عزيزًا .. قبل مجيئى بالضبط . كان كرستيان بوشيه مهندسًا مثقفًا مرهف الحس ، وقد بقى معى فى المستشفى طيلة فترة مرضى ، ولم يترك حاجة إلا وحققها لى .. كان المتوقع أن أموت أنا ويبقى هو . ما حدث هو العكس بالضبط . كان الأمر مؤسيًا وقد تغلبت عليه بصعوبة .. أخفوا عنى هذه الكارثة طيلة وجودى فى العناية المركزة ، ثم عرفت بالخبر بمجرد أن تعافيت. هذه مشكلة قاسية أخرى .. حتى المجتمعات المترفة يموت فيها الأصدقاء .. »

ــ « عزائى الحار .. »

هز رأسه وقلب كفه وقال :

ــ « فى وسط الحياة نحن فى الموت .. لكن الموت غير المتوقع قاس.. كان يعانى اكتئابًا مزمنًا لكن هذا لايفسر تلك الوفاة القاسية السريعة ، وقد ترك أرملة بارعة الجمال لن تنساه أبدًا .. »

نظرت لساعتى ..

أدرك هو أنه أطال جلوسى معه .. يعرف أننى أفضل قضاء هذه الساعات مع ابنتى وزوجتى . فهز رأسه بما معناه أن بوسعى الانصراف ..

لقد عاد (بارتلييه) يا شباب !

سوف أنعم بمعاملة باركر وليفى وهيلجا أسوأ معاملة كالعادة !



2 ـ الطبيب الشارد ..

لم أطق فى حياتى علم الفارماكولوجى أو علم الأدوية ..

ضعْ علمى وظائف الأعضاء والكيمياء الحيوية ــ وكلاهما علم صعب ــ فى الخلاط ثم قُمْ بتدويرهما قليلاً ، ليخرج لك سائل يصعب ابتلاعه أو تذوقه ، كأنه المهل أو الغسّاق أو الحميم . هذا السائل هو علم الفارماكولوجى .

بطبعى أنا لست من الطراز الذى يهوى القراءة أو الدراسة الجافة . أنا رجل أفعال . لهذا لا أعتقد أننى سأفهم علومًا مثل المناعة والبيولوجيا الجزيئية وعلم الأدوية أبدًا . فقط أملك ما يكفى من علم حتى لا أدخل السجن .. لن أعطى غالقات البيتا لمريض ربو ، ولن أعطى مضادات التهاب لمريض قرحة معدية .. فيما عدا هذا أجد دهاليز معقدة يصعب أن أدخلها ..

المشكلة أنهم يرغموننى على حضور هذه المحاضرات ..

الفكرة أن بارتلييه قرر أن يجعل حياتنا جحيمًا بمجرد أن عاد إلى سافارى ، ومن الولايات المتحدة استقدم لنا أستاذة فى علم الفارماكولوجى ، اسمها (كارين ثورنوايلد). يبدو أنها مهمة جدًا ..

لا .. لم تكن النمط الذى توارد لذهنك .. شمطاء نحيلة تدخن كثيرًا ، عصبية قوية الشخصية لها شعرتان فى ذقنها . بالعكس كانت

شيئًا ضامرًا رقيقًا .. مسنة نعم لكنها تحمل بقية جمال ذابل. أنيقة جدًا .. لها عينان واسعتان صادقتان تطلان على العالم من وراء زجاج نافذة شفافة ..

لا شك أنها تزرع أزهارًا فى حديقة بيتها وتعنى بها ، ولديها كلب أبله ..

سوف تمضى كارين عندنا شهرين فقط .. مهمتها أن تقدم مجموعة محاضرات لتثقف أطباء الوحدة .. المعدل هو ثلاث محاضرات أسبوعيًا فى علم الصيدلة الإكلينيكية بالذات. لم يكن الفرار ممكنًا لأننا وجدنا أسماءنا فى قوائم وعليك التوقيع بالحضور لدى حضور المحاضرة . هناك شهادة تدل على استكمالك الدورة ، وهذه الشهادات مهمة جدًا لو قررت الوحدة تخفيض أعداد العاملين. تخفيض العمالة هو الموضة فى العالم كله ، وعندها سوف يترددون بين اسمين فيختارون الذى حضر هذه الدورات ليبقوه عندهم. طبعًا لا توجد أمور موثوق بها فى هذا العالم ، ولربما أرغم على حضور الدورة ثم أفصل بمجرد انتهائها .. لكن ماذا بوسعى أن أفعل ؟

تقول لى برنادت :

ــ « يجب أن تذهب .. لا مزاح فى هذه الأمور .. »

ــ « بل هنا يبدأ المزاح فعلاً .. »

لم يكن اسمها مدرجًا فى القوائم لأنها من الناس المحترمين الموثوق فى كفاءتهم على ما يبدو ، بينما أنا من الأوغاد الجهلة هنا.

كنت أذهب إلى الأوديتوريام ــ حيث تلقى المحاضرات ــ فأجلس فى مقعد بعيد عن العيون وأنزع حذائى وأثنى قدمى تحتى ، كما يفعل المقرئون فى سرادق العزاء ، وأنتظر حتى تدخل الأستاذة الأمريكية :

ــ « هاى ! »

ثم ينطلق شـــعاع البروجكتور ساقطًا على الشاشة ليعم الظلام . هكذا أخرج هاتفى الجـــوال تحت مســـتوى المنضدة وألعـــب (كاندى كراش) ــ وهى بديل لعبة السوليتير القديمة ــ بلا توقف . بينما يأتى صوت المحاضرة من بعيد .. من خلف جدار الحلم :

ــ « وهناك ثلاثة أنواع من المستقبلات التى يجب غلقها قبل أن ... »

أستمر فى اللعب .. أتثاءب ... ثم يمر الوقت فأضع ذقنى على قبضتى وأغفو للحظات. أحلم ثم أفتح عينى مذعورًا ، ويسقط قلبى فى قدم لدى نبرة عالية من المحاضرة ..

ما زلت أحمل ذعر طلبة المدارس ، وأتوقع أن تسقط فوقى قطعة من الطبشور تصوبها على وقد أدركت أننى ألعب .. الصمت المفاجئ يشعرنى أنها تتسلل خلفى لترى ما أفعله .. سوف تشد أذنى لتنهضنى وهى تطلق الشتائم ...

ثم أتذكر سنى وأين أنا بالضبط .. فأضحك ..

هكذا تمر الساعتان فى ضحك وجد ولعب .. و ... لا حب طبعًا ..

ثم تعلن بصوتها الهادئ الرقيق أن محاضرة اليوم قد انتهت ، وتكلف اثنين من الحمقى الذين جلسوا أمامها بإعداد نقطة معينة للمحاضرة القادمة .. أى فروض الواجب ... لهذا أصمم على الجلوس فى مكان ناء ، وعدم النظر لها حتى لا ترانى ...

هكذا مضت الأيام ، وكنت أسميها (الساحرة العجوز) وأقول إنها تضع الأعشاب والجذور فى قدر تغليه بينما يقف الغراب جوارها ، ثم تعد وصفة سحرية تحيل الأطفال إلى ضفادع . لكننى بالطبع كنت أقرب إلى الافتراء والفظاظة .. فهى كائن رقيق كما قلت لك ..

❁ ❁ ❁

كان لا بد أن تحدث كارثة ..

فى ذلك اليوم جلست فى موضعى المعتاد ، ووضعت يدى تحت النضد ورحت ألعب (كاندى كراش) . مر وقت طويل ثم سمعت صوتها الرفيع يصيح :

ــ « أرجو أن تجيب يا دكتور ! »

اعتدت ألا يكون هذا الكلام موجهًا لى .. أنا بعيد جدًّا والقاعة مزدحمة والظلام دامس .. انعكاس خافت من الشاشة لا أكثر ، ويمكن أن تقتل رجلاً وتدفنه فلا يلاحظ أحد. لكنى عندما رفعت عينى رأيت أنها تمسك بمؤشر ليزر .. متى جاءت به ؟

ضوء الليزر يتحرك .. يتحرك حتى استقر على صدرى .. أراه يرتعش فوق المعطف. يبدو أنها وجدت هذه هى الطريقة المثلى لتختار من تريد أن تحرجهم. وللحظة خطر لى أنها علامة الليزر التى يطلقون بعدها الرصاص فى السينما .. لابد أن قوات السوات SWAT اقتحمت القاعة ..

من جديد سمعتها تقول :

ــ « أرجو أن تخبرنى بدور الفازوبريسين هنا ! »

أخبرك بماذا ؟ ليس لدى أدنى علم بما تتكلمين عنه. لو كنت تتكلمين عن اقتصاد النرويج أو طريقة تخمير الخرسانة فلا فارق عندى .. لم أسمع حرفًا مما تقولين ..

رفعت كفى فى وقار بمعنى أننى لا أعرف وضحكت ..

قالت هى فى خيبة أمل :

ــ « هذا مؤسف .. يبدو أن على أن أعيد ما قلته .. »

هنا جاء صوت عال من خلفى يقول ضاحكًا :

ــ « كاندى كراش !! »

هنا دوت الضحكات من الجميع وقد فهموا .. عندما تذكر اسم كاندى كراش فى وجود رجل شارد فالقصة واضحة ولا تحتاج لتفسيرات أكثر . طبعًا أنت خمنت أن الوغد صاحب الصوت هو الإسرائيلى أبراهام ليفى نفسه !! .. كان يجلس من خلفى فى وضع يتيح له رؤية ما أفعله .. وبالطبع لن يترك فرصة كهذه دون أن يضايقنى ويفضحنى ..

دوى صوتها يحاول إعادة النظام للصفوف وقالت :

ــ « لا أعتقد أن هذه اللعبة ستعطيك دروسًا فى علم الفارماكولوجى أكثر مما أستطيع أن أعطيه أنا .. على كل حال سأكون شاكرة لو غادرت القاعة .. »

كانت إهانة بلا شك ، لكنى تصرفت بشكل متحضر فنهضت .. ومشيت بين الصفوف متجهًا للباب. لن يرى أحد احمرار أذنى فى الظلام على كل حال. سوف أذيق هذا الفتى الويل بلا شك .. فيما مضى كدت أحقنه بفيروس الإيدز أو أقنعته بذلك. يبدو أننى سأفعلها هذه المرة فعلاً ...

سيكون عليه أن يدفع غاليًا ثمن كرامتى المهدرة .. أنا لم أعد صبيًا يبتلع الإهانات ..

* * *

طبعاً لا محبة إلا بعد عداوة كما يقولون ..

كانت كرامتى ملتهبة تؤلمنى ، لكنى برغم هذا قررت أن على أن أترك انطباعًا بالتحضر لدى هذه المرأة .. قلت لك إننى أعانى حالة مزمنة من المسئولية .. أنا أبدو عربيًا بوضوح ، وكذلك أبدو مصريًا بشدة . لا أريد أبدًا أن أترك انطباعًا سيئًا لدى الأجانب .. يومًا ما سيقول أحدهم :

« كنت أعمل مع طبيب مصرى .. كان رجلاً طيبًا شريفًا برغم عصبيته الشديدة » ، هذا هو ما أريده وأشعر بأنه مسئولية وطنية ودينية ..

لهذا ضغطت على كبريائى وتوجهت إلى مكتبها .

كانت هناك جالسة على مقعد بعيد عن المكتب فى ركن الحجرة ، وكانت تشرب القهوة فى كوب ورقى ، بينما جلس معها آرثر شيلبى المبهرج الظريف واضعًا ساقًا على ساق ... لا بد أنهما يتكلمان عن مباريات الروديو فى تكساس أو حرب فيتنام أو يشتمان أوباما.. فيم يتكلم الأمريكان غير هذا ؟

صاح ملوحًا بيده ودعانى للجلوس .. كان منتعشًا كالمصيبة كعادته ، وقد وضع ربطة عنق زاهية مع قميص أسود .. بدا وسيمًا بالفعل . لابد أنه جالس مع مواطنته هذه يصدع رأسها بأمجاده وكم هو عظيم ورائع ..

كنا نمر بلحظات قاسية فى تلك الفترة بسبب تفشى وباء الإيبولا . لم يظهر عندنا لحسن الحظ لكنه على الأرجح قادم لا محالة .. نحن فى غرب أفريقيا إن كنت قد نسيت هذا ، لهذا تضخمت أهمية آرثر شيلبى جــدًا وصار الكل يطلبه لاستشارته ، كما أن خبيرى الأوبئة عنــدنا كانا مطلوبين دائمًا . هذا بالطبع إلى أن يصاب أول طبيــب عندنا بالفــواق المرعب ويفرغ الدم من كل فتحات جســده .. عنــدها يمكننا أن نتلو الشهادتين ونموت ..

جلست وبكياسة قلت لها إننى أخطأت وإننى لأطلب الصفح ..

ــ « لم أهتم يومًا بعلم الفارماكولوجى وأكرهه .. ولم أطلب حضور هذه المحاضرات لكنى مرغم على ذلك .. ليس هذا مبررًا للعب كاندى كراش فى

الظلام ، لكنه قد يفسر دوافعى .. الأمر يتعلق بالميول وليس بالاستهانة . كنت سأفعل الشىء ذاته لو كنت فى أوركسترا فيينا السيمفونى لأننى أمقت الموسيقا الكلاسية . هذا لا يعنى استهانتى بها .. »

كانت تصغى لى بوجهها المجعد المريح مع نظرة لعوب فى عينيها كأنها طفلة شقية. لو قابلت كارين هذه وهى أصغر بثلاثين عامًا لوقعت فى غرامها بالتأكيد .

صاح شيلبى فى حرارة :

ــ « هلم ..!.. الصبى طيب القلب وشهم .. لكنه ليس من طراز الذين يجلسون ساعة لسماع محاضرة .. أنت ستسامحينه يا كارين .. »

صبى !.. سوف يظل يعتبرنى صبيًا حتى وأنا أمشى على عكازين متجهًا لإجراء جراحة البروستاتا .. المهم أن هذا جعلها تبتسم ..

قالت لى وهى تلوح بكوب القهوة :

ــ « سأعقد معك صفقة من أجل خاطر البروفسور شيلبى .. لن أوجه لك أسئلة طيلة المحاضرة ما دمت صامتًا ، لكن لن أستطيع إعفاءك من الحضور وإلا لكانت سابقة ولطالبنى الجميع بذلك .. أنا أعرف أننى لا أقدم عرضًا ممتعًا .. »

قال شيلبى صاخبًا :

ــ « بحق السماء !.. هذه صفقة ممتازة ! »

شعرت أنا كذلك أنها صفقة ممتازة ، لكن ما لم أتوقعه قط هو أننى سأصغى لما تقول فأهتم . وبعد قليل سوف أحب الفارماكولوجى كما أحب بطل 1984 الأخ الأكبر فى النهاية !

لكن هذا ما حدث ..

3 ـ المهندس العاشق ..

هذا خطاب وجده بارتلييه ضمن أوراقه ، وقد وصله قبل سفره للعلاج فى فرنسا ، فلم يقرأه . كان كرستيان بوشيه تقليديًا طيلة حياته ، فلم يشعر قط براحة لدى التعامل مع اختراع البريد الإلكترونى . كان يحب رائحة الورق الحميمة ولون الحبر .. ونشوة فض الرسالة المغلقة ولحظة الرجيف المعهودة عندما تفتح الورقة ....

عزيزى موريس :

لا شك فى أننى أتحسن إذ استعدت قدرتى على أن أمسك القلم وأكتب خطابًا. أنت تعرف حالة مريض الاكتئاب التى وصفها أحد الكتاب ببراعة : لو وجدت ألف يورو على الأرض فلن أجد الطاقة اللازمة لأنحنى وآخذها. كنت مكتئبًا لدرجة أننى لم أجد طاقة كافية لأن أشنق نفسى فى الحمام .. هذا يستدعى شراء حبل وعمل عقدة وتسلق مقعد .. إلخ !

تصحو من النوم صباحًا تتساءل فى لهفة عن الوقت الذى يأتى فيه المساء .. ثم يأتى المساء فتتمنى أن ينتهى لتتخلص من عذاب البقاء وحيدًا ساهرًا .

أنا أتحسن ... يبدو أن العلاج الذى وصفوه لى فعال حقًا .. ثلاثة أقراص من (الماربلان) كل يوم وينتهى الكابوس .. لا أثق

بالعقاقير لهذا الحد ولا أحسبها قادرة على تغيير الحقائق. ما حدث فعلاً هو أننى وقعت فى الحب .. لِمَ لا ؟

اسمها (مادلين) .. (مادلين بنوا) . رائعة الجمال بالطريقة التى تقدر بها سيدة فى الأربعين على أن تكون بارعة الجمال . إنها التفاحة قبل أن تفسد عندما تصل لذروة النضج والجمال . أنت تعرف أننى فى الأربعين كذلك ، ولم تعد الفتيات الصغيرات يثرن اهتمامى . أنا ثرى فعلاً .. لكنى أذكى من أن أبتاع فتـــاة صغيرة بمالى لتخوننى مع أول بستانى يقـــرع الباب . كلا .. لو تزوجت فلسوف تكون من سنى ..

مطلقتى جان كانت فارعة القامة شقراء زرقاء العينين وديعة .. هكذا بحثت عن كل شيء ليس فى جان. كنت أحلم بامرأة قصيرة القامة سوداء الشعر والعينين ، متمردة وقوية الشخصية ، وقد وجدتها .

كانت (مادلين بنوا) خبيرة تغذية .. تعمل فى أحد المراكز الصحية فى باريس ، ولهذا كانت رشيقة القوام فعلاً .. أعتقد أن صحتها كانت ممتازة ..

كيف التقينا ؟ الأمر سهل .. لديها بيت ريفى وكانت ترغب فى إجراء سلسلة من التجديدات عليه . التقينا وبعد بضع جمل بدأ كلانا يدرك أن الآخر جدير بالاهتمام .

كان بيتها الريفى ميراثًا من زوجها السابق (مشيل بنوا) رجل الأعمال المعروف ، الذى توفى منذ عام ... يبدو أنه كان ثريًا فعلاً . لم ترد أن تحكى لى تفاصيل عنه وقد احترمت رغبتها هذه. هى امرأة ثرية إذن ....

فى اللقاء الثانى قلت لها إننى أقترح أن نتكلم على مائدة العشاء ..

وافقت لحسن حظى . وهكذا وجدنا أننا جالسان نسمع لفالس كومبارسيتا على ضوء الشموع فى مطعم باريسى خافت الأضواء .. كئوس النبيذ الأحمر وعيناها تتألقان فى الظلام .

عندما ترشف المرأة النبيذ وهى تنظر فى عينك ، فهى خطيرة فعلاً ..

كومبارسيتا .. هل تريد أن ترقص ؟ ننهض معًا وسط الحلبة ووسط الموسيقا القادمة من تحت قدميك . نتحرك للأمام .. للخلف ... أمام .. خلف ... تطوح رأسها للوراء ... كأنها تشرب من نبع ..

كومبارسيتا .. تلف حول نفسها ... تلقى يديها على كتفى ..

عندها أدركت أننى وقعت فى الحب ...

وعندما انتهت الأمسية أوصلتها لدارها الباريسية.. شقة فى الطابق العاشر من بناية فاخرة .. قلت لها إننى أرغب فى الدخول ، فقالت :

ـــ « لا .. ليس الآن .. »

ثم لثمت جبهتى ودخلت ..

أما أنا فقد أدركت أننى تلقيت علاجى من الاكتئاب. نمت ملء جفونى ، وفى الصباح لم أبتلع العلاج .. لماذا أتعاطى علاج اكتئاب وأنا أوشك على الجنون بانتظار لقائها فى المكتب ؟

كومبارسيتا ..

فقط المرأة يمكنها أن تجعلك تحلق بهذا الشكل ، وفقط المرأة تجعلك نوعًا من الديدان الزاحفة حتى لتمقت رؤية أناملك أو قدمك ..

كنت أحلق .. وتعددت اللقاءات بيننا .. عرفت كل شيء عنى وعرفت الكثير عنها. لا أنكر أن هناك مناطق مظلمة فى عالمها لم يصل لها ضوء ولم يخترقها إنسان ..

كانت خائفة من الغد ... وكانت بحاجة لحماية برغم قوة شخصيتها وكنت أنا ذلك الحامى ..

أنا تزوجت يا عزيزى موريس !

❁ ❁ ❁

أنت مندهش لسببين ..

السبب الأول هو أنك لم تتوقع أن أتزوج قط بعد جان .. كنت قد أعطيتك انطباعًا أننى زهدت النساء للأبد ، وبدا أن أسعد وضع لى هو أن أموت وحدى .. لا أنكر أن جان سببت لى الكثير من الاكتئاب .. سببته بوجودها ثم برحيلها ..

السبب الثانى هو أن هذا تم بسرعة البرق ..

السبب الثالث ــ برغم أنهما سببان فقط ــ هو أننى لم أدعك للزفاف ، وكـــان من البداهة أن تكــون أنت أول المدعوين .. لكن تم كل شيء بسرعة ..

هأنذا أقف فى الكنيسة جوار عروسى الجميلة سوداء الشعر قصيرة القامة قوية الشخصية .

همست فى أذنها ونحن نقترب من المذبح :

ــ « أنا مريض اكتئاب .. الحياة معى صعبة فعلاً .. »

قالت هامسة :

ــ « وأنا اعتدت أن تكون الحياة صعبة .. لو لم تكن صعبة لشعرت بقلق مخيف .. »

وهكذا وقفنا أمام القس ، وهو يردد الكلمات التى تجعلنا زوجين للأبد .. لن نفترق أبدًا . وداعًا يا جان .. لقد وجدت من هى أفضل منك بكثير ..

ثم نتجه لساحة الكنيسة حيث يلتقط لنا الجميع الصور ، ونركب السيارة المكشوفة التى تجر وراءها علب التنك الفارغة .. ثم ننطلق للمجهول فوق السحاب . ما زالت هناك متع فى الحياة بعد الأربعين وكنت أحسبنى أنهيتها جميعًا ..

شهر عسل فى المغرب .. وهو شهر عسل فعلاً بالمعنى الحرفى للكلمة . مادلين بنوا التى صارت بوشيه امرأة جميلة فعلاً والحياة معها نعيم مقيم ..

ولما انتهى شهر العسل عدنا لنقيم فى بيتها الريفى فى (بارب شا) وكنت قد انتهيت من عمل التجديدات المطلوبة فيه . وبدأ فصل جديد فى حياتى ..

يمكنك أن ترى مادلين وهى تتواثب كعصفور من غرفة لأخرى ، فى قميص نوم أسود مزدان بالدانتيلا وهى تفتح النوافذ لتدخل الشمس .. أو تزيل بعض الأتربة عن الأثاث .. ثم تركض للحديقة لتقطف بعض الأزهار كأنها قطة هانئة لعوب .. لوحة اسمها البهجة ...

سعيدًا كنت وسعيدًا كانت ..

لكن كل شيء ينتهى مع الوقت .

بدأ ذلك الاكتئاب اللعين يعود لي. اتصلت بطبيبى النفسى فاقترح أن أعود لاستعمال أقراص (الماربلان) .. وقال :

ـ « ليس غرض العلاج أن يشفيك .. بل الأهم من ذلك أن يحميك من هجمات أخرى . فكر فى الاكتئاب كمرض السكرى أو ضغط الدم .. أنت لا تتعاطى العلاج لتشفى ، بل حتى تمنع الأمور من أن تسوء .. ومع هذا فالمرض مزمن .. »

هكذا عدت أبتلع أقراص علاج الاكتئاب. وأيقنت أننى فى مصيدة يصعب التملص منها. وأخبرت مادلين بذلك فقالت ضاحكة إننى أعتمد على العلاج أكثر من اللازم .. سوف تعطينى السعادة وتشفينى من الاكتئاب بطرق طبيعية بسيطة ..

هكذا راحت تقدم لى موسيقا ناعمة تدوى من عدة سماعات فى البيت طيلة اليوم ..

قامت بتغيير لون الستائر لتصير زاهية مفرحة .

دهنت غرفة نومنا بلون وردى يذكرك بعوالم باربى .

ثم اقترحت أن تغير قائمة طعامنا ، لأن هناك أطعمة يمكن أن تحسن المزاج .. لا تنس أنها خبيرة تغذية ، وهكذا صارت صلصة الصويا عنصرًا رئيسًا فى طعامنا .. قالت لى إن الصينين يتمتعون بصحة جيدة ويعمرون بسبب فول الصويا .. قلت لها :

ـ « لا أريد أن أكون معمرًا .. فقط أريد أن أموت غير مكتئب .. »

ربما قلت هذا ودمعة تسيل على خدى ..

وضعت أناملها تحت ذقنى وقالت :

ـ « سوف تجد السعادة يا بنى .. ثق بى .. »

الآن صرت آكـل أشـياء كثيـرة شهية المذاق تزعم هى أنها تزيل اكتئابى .. السجق .. المورتاديلا .. جبن الشيدر والجبن السويسرى ، وأنت تعرف أننا كفرنسيين نعشق الجبن كفئران صغيرة. كذلك كانت تقدم الكثير من الكرنب المخلل حتى انتفخت كعوامة البحر .

كنت أؤمن دومًا أن الطب الطبيعى كلام فارغ . بالفعل لم أتحسن ذرة واحدة . كل أطعمة العالم لا تؤدى دور قرص دواء صنع بعناية . أدخلت هى فى طعامى نبتة سان جون (العرن) وهى علاج معروف للاكتئاب . قالت لى إن فيها مادة اسمها الهيبرفورين . وهذا اسم موح بالسعادة كما ترى .

أنت تعرف هذه الأمور أفضل منى بالتأكيد .. أنا لست طبيبًا ... اكتئاب مزمن ، لكنها قادرة على تبديده بوجودها وليس بهذه العقاقير ولا هذه الأطعمة ..

هذه المرأة ساحرة .. ساحرة وقـــد امتلكت مفاتيحى . كومبارسيتا .. أرقص معها الكومبارسيتا .. نمشى فى أرجاء الغرفة وقد رفعنا رأسينا وتلاصق خدانا ...

كومبارسيتا ...

أنا أحبها .. أنا سعيد للغاية .

لقد طال خطابى لك يا موريس .. عندما تأتى إلى فرنسا سوف تقابلها ولسوف تنبهر بها ، فقط عدنى ألا تأخذها منى !

باخـلاص

كرستيان

4 ـ أمسية تنتهى بشكل مؤسف ..

بالفعل بدأت أدخل العالم السحرى لعلم الفارماكولوجى ، وعرفت سر تميز (كارين ثورنوايلد) فى علمهـــا .. لأســباب كهـــذه تأتى من بلدها على حسابنا ، وتسكن فى شقة فاخرة فى وحدة سافارى ، وتنال أجرًا ممتازًا ...

إنها تعرف الكثير ، وهى قادرة على تحويل ما تعرفه إلى متعة خالصة .

اعتدت أن أحضر المحاضرات ، فأتواجد فى وقت مبكر .. صرت أجلس فى صف متقدم وليس بعيدًا عن العيون ، وصرت أرد على كلامها ..

لم تكن هذه عصا سحرية جعلتنى عبقريًّا .. الأمر ببساطة هو أن طريقتها فى الشرح كانت ساحرة. لقد خلق الله بعض الناس موسيقيين أو رسامين .. هى خلقت للتدريس وليس لها عمل آخر . والحق أننى استرجعت الكثير من علم الفارماكولوجى من أيام الدراسة ، وإن كانت الأمور تزداد تعقيدًا دائمًا .. هناك أصناف دواء لا تنتهى وتستجد فى كل يوم .. أسماء المضادات الحيوية الجديدة تنهمر ، وكذلك العوامل المنشطة للمستعمرات وأدوية التحكم فى ضغط الدم .. هناك كارثة اسمها العامل المحلل للأورام والأدوية التى تمنعه من عمله ..

قالت لنا باسمة :

ــ « يجب أن نتذكر أن الدواء اخترع لشفاء المرضى ! »



ضحكنا جميعًا على هذه الحقيقة البديهية ، فقالت :

ــ « تحسبون هذا واضحًا ، لكن هواية كتابة الأدوية ممتعة وتستولى علينا .. لهذا صارت غرضًا فى حد ذاته .. »

وحكت لنا عن أكداس الدواء التى لا قيمة لها والتى يتعاطاها الناس ليل نهار.. الناس تعشق الدواء بجنون مهما زعمت العكس ...

بعد المحاضرة قمت بتهنئتها ، وقلت لها إننى أمقت الفارماكولوجى ، وأمقت الأرض التى يمشى عليها علماء الفارماكولوجى ، وأمقت الفاكهة لأن فيها ثلاثة أحرف من كلمة الفارماكولوجى ، لكن برغم هذا قد بدأت تثير اهتمامى ..

ضحكت وقد بدا عليها الرضا ، ثم اقترحت أن تستضيفنى هذه الليلة فى الفيلا الصغيرة التى تقيم فيها ضمن حدود سافارى .. ليس لهذا الحد .. أنا معجب بطريقتها فى تدريس الفارماكولوجى لكن ليس لدرجة أن .... ثم إنها عجوز شمطاء مهما كان إعجابنا بخفة ظلها ..

لكنها قالت لى على الفور قبل أن أتمادى فى الهذيان :

ــ « أنت والدكتور عبد العظيم طبعًا .. يقولون إنها كائن رائع ، لكنى لم أحظ بلقائها .. »

فهمت .. زيارة عائلية وغالبًا سنجلب الشيطانة الصغيرة سارة معنا ..

وهكذا عدت لبرنادت لأخبرها بموضوع الزيارة .. سوف نخرج !!... ومعنى الخروج هنا أنك ستمشى عشر خطوات لتصل للفيلا الصغيرة المخصصة للضيوف . برغم هذا تأنقت برنادت وأرغمتنى على ارتداء قميص جديد ... لأنها ستلقى بنفسها من النافذة لو لبست نفس القميص المبلل بالعرق ثانية .

ــ « لكنها أمريكية .. والأمريكان ليسوا معقـــــ .... »

ــ « هم يحبون النظافة أيضًا .. »

ثم إنها جعلت الصغيرة مثل باربى معطرة أنيقة ، وأنا سعيد لأن سارة لا تشبه هذه الدمية القبيحة الماسخة باربى . هى ذات طابع مصرى لا شك فيه ..

وقفت برنادت ساعتين تعد كعكة للعالمة الأمريكية ، وفى التاسعة مساء كنا ندق بابها ...

كانت ترتدى قميصًا ذا ألوان زاهية وبنطالاً واسعًا يذكرك ببناطيل المنامات ، وقد رحبت بنا بالطريقة الأمريكية الهستيرية الصارخة ، ثم دعتنا للداخل ..

أحضرت سكينًا وقطعت شريحة كبيرة من الكعكة وتذوقتها ثم هتفت :

ــ « مممممم !... من ألذ ما ذقت .. أنت طاهية بارعة يا برنادت .. »

لما تذوقت قطعتى وجدت أنها أسوأ كعكة ذقتها فى حياتى . الأمريكان حمقى أو هذه المرأة منافقة فعلاً . لكنى بالطبع كتمت خواطرى ورحت أتظاهر بالسعادة ..

مع الوقت صارت المرأتان صديقتين .. راحتا تثرثران ، وراحت سارة تلهو على الموكيت وقد جلبت لها العالمة بعض الدمى الصغيرة .. سوف تظل لطيفة إلى أن تغرق الصغيرة الموكيت ببولها طبعًا ..

كانت الفيلا بالطبع تخص وحدة سافارى ، لذا لم تكن تحمل أى طابع شخصى من الداخل ، لكنى لاحظت أنها وضعت على منضدتين صورًا لأفراد أسرتها ، ولوحتين جميلتين لفان جوخ .. الهولندى العبقرى المجنون ، الذى سرق كل لص فى العالم لوحته (أزهار الخشخاش) من متحف محمد محمود خليل .. لا بد أنها لم تبق فى موضعها على الجدار ثلاث ساعات متواصلة فى تاريخها .

رحت أتأمل صـــور الأسرة . لو كـــان صحيحًا أن الفتـــاة مرآة أمها ، فهـــذه السيدة كانت ســـاحرة فعـــلاً فى شبابها .. إن ابنتها جميلة بشكل لا يصدق ... أما عن اللوحـــة فكانت تمثل مشهدًا ليليًا ذا طابع أزرق .. مرســـومة بتلك الطريقـــة الدوامية الصرعيـــة التى تميـــز رســـوم فان جوخ ..

لاحظت كارين ما وقفت أراقبه ، فقالت ضاحكة :

ــ « هناك امتحان صغير فى علم الفارماكولوجى فى هذه اللوحة .. »

نظرت لها فى حيرة ولم أفهم ..

قالت :

ــ « يحب هذا الفنان استعمال اللونين الأزرق والأخضر بكثرة .. ألم تلحظ هذا ؟ »

هززت رأسى أن بلى .. هذا هو أسلوبه .. ما فى ذلك ؟ هناك لوحات لبيكاسو حمراء كلها أو زرقاء كلها . لكنها قالت :

ــ « لم يكن يرسم من خياله .. الحقيقة أنه كان يرى العالم بهذا الشكل فعلاً ! »

تبادلت نظرة عدم فهم مع برنادت ، فقالت العالمة :

ــ « اللون الأزرق والأخضر فى شكل هالة تغلف الأشياء .. هذه من علامات التسمم المزمن بالديجيتالا .. لقـــد كان فان جـــوخ يتعاطى نبات قفاز الثعلب Fox's glove كمخدر .. وهـــذا النبات هـــو المصدر الطبيعى لعقار الديجيتالا !... هكذا يمكنك فهم سبب اختيار هـــذه الألوان الغريبة للوحاته !! »

هنا فقط استعدت كلمات أغنية (فنسنت) الهادئة الرقيقة ، التى تحكى حياة هذا الفنان العظيم :

ليلة مزدانة بالنجوم .. »

فلتجعل (باليتة) ألوانك زرقاء وخضراء ..



أزهار مشتعلة تتألق لامعة ..

سحب ملتفة فى ضباب بنفسجى ..

تنعكس فى عينى (فنسنت) الزرقاوين الصافيتين ..

ألوان تتدرج ..

حقول نهارية من الحبوب بلون الكهرمان ..

وجوه لوحتها الشمس تصطف بالألم ..

تستريح تحت يد الفنان المُحبّة .. »

أضافت كارين :

ــ « بالطبع ليس هذا هو سبب حبى لفان جوخ .. ليس الأمر علميًا بحتًا .. بل أحبه ببساطة لأن رسومه ساحرة ! »

كنت أرمق اللوحة وقد بدأت أشعر أننى أدخل عالم الفنان العبقرى المجنون .. تقول الأغنية :

« الآن أفهم ما حاولت أن توصله لى ..

كيف كافحت لتحتفظ بعقلك ..

كيف حاولت أن تحرر هؤلاء

لكنهم ما كانوا ليصغوا ..

ربما سيصغون لك الآن .. »

قلت لكارين منبهرًا :

ــ « أنت تعرفين أشياء كثيرة .. »

قالت فى بساطة :

ــ « هذا هو العلم والتعلم .. منذ نصف دقيقة لم تكن أنت عارفًا لهذه المعلومة الآن تعلمها وسوف تبهر بها شخصًا آخر يظن أنك واسع العلم .. نحن لا نكف عن التعلم ما دمنا أحياء والعلم ينتشر كدلو من الماء سكبته على موكيت .. ينتشر ويتوغل ولو حالفك الحظ يورق .. »

كانت حافية القدمين وهى تكلمنى ، فرأيتها تنظر لقدميها فى دهشة وقالت شيئًا عن الموكيت المبتل الذى ....

ثم نظرنا جميعًا لسارة المتربعة على الأرض ترمقنا فى سعادة ، وأدركنا أن الأمسية انتهت النهاية الأسيفة التى كنا نخشاها ..



5 ـ الـذى رحـل ..

فيما بعد حكى لى بارتلييه التفاصيل كلها ..

بالطبع كان من الغريب أن يتبسط معى لهذا الحد. لست صديقًا حميمًا له .. صحيح أننا اقتربنا كثيرًا جدًا لكن ليس لحد أن يحكى لى ما حكاه ... أعتقد أنه كان فى حالة من الوهن والضعف ، مع حاجته لأن يحكى أسراره لأى شخص .. شخص بعيد عنه نوعًا. أعرف هذه الظاهرة .. عندما تريد أن تفرغ محتويات روحك بصراحة تامة ، فأنت على الأرجح تختار غريبًا لا يعرفك . غريبًا لن تقابله ثانية .. ربما تقابله فى المقهى أو الحافلة أو طابور الجمعية التعاونية ، بينما قد لا تصارح أخاك بهذه الأشياء . مثلما ترفض فتيات الأسرة أن أفحصهن مع إننى طبيب .. يفضلن أن يفعل ذلك طبيب غريب .

كان بارتلييه قد قضى بضعة أيام فى المستشفى بعد الجراحة . وعندما أخبروه أن بوسعه أن يخرج وأن يعود لسافارى الكاميرون ، كان أول من سأل عنه هو كرستيان بوشيه. صديقه المهندس .. صديقه منذ الصبا ، برغم أنه أصغر سنًا منه بكثير. كان كرستيان قبل ذلك يزوره يوميًا فى المستشفى ويجلب له كتبًا وأزهارًا .

ذات مرة جاءه ومعه امرأة بارعة الجمال ، قصيرة القامة ذات شعر أسود ووجود مسيطر ساحر .. قال له إنها (مادلين بوشيه) زوجته ! وهى التى كانت تحمل اسم (بنوا) عما قريب ...

تزوج ؟ متى وكيف ؟ بعد جان ؟

لم يكن قد قرأ الخطاب الذى أرسله له صاحبه والذى يحكى له كل شىء ، لذا حكى له كرستيان القصة كاملة ، وقال إنه سعيد جدًا .. منتش للغاية .. أرهقته السعادة حتى أنه لا يعرف ما يفعل بنفسه ..

ــ « عندما تشفى ستزورنا فى بيتنا الريفى .. سوف تجد أنه جنة .. هى صنعت منه جنة .. »

كان بارتلييه يشعر فى تلك الأيام بالوحدة وقسوة الأيام .. كما أن المرض جعله هشًا .. شعر بحسد لصاحبه ..

إن كرستيان من المصابين باكتئاب مزمن ، وهو يزور طبيبه النفسى مرتين أسبوعيًا .. لكن بدا من الواضح أن مادلين هذه أقوى من أى مضاد اكتئاب فى التاريخ ..

فجأة اختفى كرستيان .. لم يعد يظهر بتاتًا ..

لفترة شعر بارتلييه بقلق ، ثم قال لنفسه إن من حق الناس أن يعيشوا حياتهم .. لا يجب أن يطالبهم بأن يصيروا حراسًا له .. كل واحد عنده حياته ..

وهكذا ترك مبضع الجراح يمزق صدره ، وأفاق فى العناية المركزة بين الحياة والموت ..

قضى بضعة أيام هناك ، ولأنه قلق دائمًا فقد كانوا يحقنونه بالمهدئات التى تجعله شبه نائم طيلة اليوم. لا يعرف من زاره هناك وهو مغمض العينين ، لكن كريستيان لم يأت على قدر علمه .

عندما قال له الأطباء إن بوسعه الخروج ، كان أول ما قام به هو أن استأجر شقة ينقه فيها قبل العودة للكاميرون والعمل. هو لم يعتد المرض ويعرف أن وحدة سافارى بحاجة له. باركر يتابع الأمور جيدًا لكن باركر ثقيل الظل وشرير بطبعه. ثم أنه ــ بارتلييه ــ لم يعرف فى حياته منذ عقود سوى وحدة سافارى والبناية على شكل حرف L والسيارات التى تحمل الشعار إياه ، والأفارقة التعساء الذين يحتشدون فى المدخل. لكنه برغم هذا اتصل بصديقه كرستيان عدة مرات دون رد ..

كان يشعر بقنوط شديد .. لماذا تخلى عنه كرستيان فى ظروف كهذه ؟

وفجأة استجاب الهاتف اللعين .. سمع صوت امرأة تسأل عمن هنالك .. قال لها :

ــ « أنا موريس بارتلييه ... هل هذا هاتف كرستيان ؟ »

ساد الصمت لفترة ثم قالت :

ــ « كرستيان مات !.. أنا مادلين ! »

❁ ❁ ❁

الآن يعرف لماذا لم يقل له أى واحد شيئًا عن كرستيان .. آخر وقت تسمع فيه عن وفاة صديقك هو الوقت الذى ترقد فيه فى العناية المركزة بعد جراحة قلب مفتوح ...

لقد تماسك بصعوبة حتى لا يسقط .. غطى فمه مذعورًا وقال بصوت راجف :

ــ « أريد العنوان .. »

ــ « أنت لست فى حالة تسمح بـ ..... »

ــ « أريد العنوان !! .. »

هكذا أخبرته بالعنوان فى (بارب شا) ، وسرعان ما كان يركب القطار وسط الضواحى الريفية والخضرة والمطر الخفيف الذى يبلل الزجاج ، متجهًا إلى القرية التى احتضنت رفات صديق عمره .. اهتزاز القطار والإرهاق جعلاه ينام .. وفى نومه رأى كرستيان يقول له :

ــ « أنا سعيد .. لقد لفظت أنفاسى وأنا سعيد .. أربعون عامًا تنتهى فى سعادة خير من سبعين عامًا من العذاب .. »

نزل من القطار والمطر يبلل أنفه وعويناته .. يستنشق بعمق ليشعر بأن القطرات تغسل ما فى داخله من ألم .. أنت تموت مرة عندما يموت أبوك ومرة أخرى فى كل مرة يموت فيها صديق لك .. لهذا نموت فى النهاية : لأنه لم يبق منا شىء ..

الأرملة السوداء تنتظرك .. المرأة المنحوسة التى فقدت زوجين وكلاهما دفن فى (بارب شا) ...

هناك كانت واقفة جوار السيارة الفاخرة ، وكان هناك سائق متأنق ذو قفازين يجلس خلف المقود. شوفير كما نراه فى السينما. بدت رائعة باللون الأسود ، كأنها نوع فريد من الطيور .. نظارة سوداء تعطيها مسحة غموض ووقار معًا .. لقد فقد كرستيان الكثير.

لما رآها ارتجف وسالت دمعة من عينه ، فقالت :

ــ « تماسك يا موريس .. بالله عليك .. »

لم يسمعها تناديه موريس من قبل .. كانت تقول (مسيو بارتلييه) ... وشـعر بألفة غيـر عادية . مدت يدًا رقيقة باردة تصافحه فشعر أنها غاصت فى كفه المكتنزة البدينة ... مشهد التقام الأميبا لخلية بكتريا قابلتها صدفة ...

ركب السيارة جوارها ، فسألته :

ــ « ما أخبار الجراحة ؟ »

ــ « كانت ناجحة ! »

ولم يفسر لماذا (كانت) .. الحقيقة أنه توقع أن يدفع ثمنًا غاليًا لهذا الحزن . من جديد سألته بينما السيارة تنطلق :

ــ « وماذا عن وحدة .... تلك الوحدة التى تديرها فى أفريقيا ؟ »

قال فى صبر :

ــ « سافارى ... وحدة سافارى فى الكاميرون .. إنجاوانديرى ... لا أعرف عنهم شيئًا .. انشغلت بما يحدث فى قلبى فلم أعد أتابع ما يحدث خارجه .. »

هناك وقف وسط شواهد القبور ..

أوراق الشجر الذابلة تتطاير هنا وهناك ، مع لمسة الحزن الشتائية التى تميز المقابر . ثمة لمسة من السلام لا شك فيها. هناك شجرة على بعد خطوات ، وهناك طائر مغرد وقف على غصن وميل رأسه يتأمله فى فضول بتلك الطريقة العصبية السريعة المميزة للطيور ، ثم حلق مبتعدًا .. أزهار ذابلة على شاهد القبـر .. اسـم كرستيان بوشيه مكتـوب على الحجر .. آخر مكان يمكن للمرء أن يجد اسمه على الحجر فيه .

حاول أن يتخيل كرستيان وقد تحول لهيكل عظمى أو جسد نخر ، فلم يستطع .. رآه كما هو بالضبط وعلى شفتيه ابتسامة خافتة ..

مات كرستيان وهو يخشى أن يموت صديقه !.. الآن يقف الصديق على القبر .. فلو كان يعرف بيت شعر أحمد شوقى الذى ينعى فيه صديقه حافظ إبراهيم ، لوجده مناسبًا جدًّا ويلخص الأمر :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى .. يا منصف الموتى من الأحياء

فى النهاية قالت إن عليهما الرحيل.. لم يعترض لأنه صار طفلاً بلا إرادة ولا قوة ...

❋ ❋ ❋

فى البيت الريفى الفاخر ، كان ساق وقور يقدم لهما الشاى والحلوى ، بينما كلب لولو صغير من الطراز الذى يصدر صراخًا ويصاب بالذعر طيلة الوقت. هذا الكلب كان يستقر على حجرها . قاعة الجلوس كانت تشى بالثراء ورقى الذوق .. يبدو أن ذوق كرستيان كان هو الأرجح ..

قالت له وهى ترشف الشاى :

ـ « كان الأمر لغزًا ... أنت تعرف اكتئابه المزمن ، لذا خطر لى أنه قتل نفسه . لا أخفى عليك أننى فكرت فى هذا مرارًا ثم استبعدته .. كان يحبنى بحق ، وحتى إن لم أمنحه السعادة التى يريدها فما كان ليرضى لى بالألم والفضيحة .. سمعة الزوجة التى ينتحر زوجها ليست أروع سمعة ممكنة. قمت بمحاولة علاجه بالغذاء .. هناك أنظمة غذائية قادرة على أن تحسن الاكتئاب ، ولا شك أنك سمعت عن نبتة سان جون (العرن) التى تحوى الهيبرفورين. لكنه لم يؤمن لحظة بهذا العلاج . كان يثق بالحقن والأقراص ... فقط ...

« فى يوم رحيله جاء لى ، وكنت فى غرفة النوم أطالع كتابًا .. لاحظت أنه شاحب الوجه وأن العـرق يحتشد على جبينـه .. سألته إن كان على ما يرام فهز رأسه موافقًا . شعرت بأنه لا يملك القوة على قول ذلك . ثم

أنه دخل إلى الحمام وسمعته يفرغ معدته .. هرعت له هناك فغسل وجهه وقال إنه سيكون بخير. كان الصداع يقتله ..

« عاد لغرفة النوم .. ثم .... »

وهنا غلبها البكاء فألقت بالكلب أرضًا ، وأخرجت منديلاً وراحت تستجمع أنفاسها بصعوبة. قال لها بارتلييه مشفقًا :

ـ « يكفى هذا .. لا أريد تفاصيل .. صدقينى .. »

لكنها واصلت الكلام كأنها تتلذذ بالألم :

ـ « كان مرهقًا وأراح نفسه على الوسادة ثم كف عن الكلام ، عندها أدركت أن الأمر خطـر .. هرعت أطلب الإسـعاف بالهاتف . لكنـه كان قد كف عن التنفس ... كف عن الحيـاة .. عنـدما وصـل المسعفون كان من المستحيل عمـل شىء .. لقـد مات . كانت هنـاك أسئلة عديدة عن سبب الوفاة. عندما يموت مكتئب فى سـن الأربعين ، فـإن فـكرة الانتحـار تطفو على السطح. لكن لا شىء .. لا توجد آثـار عقاقير .. حتى فحص الدم لم يثبت شيـئًا ، وكـان تقرير الطبيب هو أن شريانًا فى مخه انفجر نتيجة ارتفاع ضغط الدم .. هذه أمور تحدث حتى بالنسبة للشباب .. »

قال بارتلييه فى أسى :

ـ « أسباب الموت المفاجئ فى سن صغيرة لا حصر لها ، لكننا هناك نتكلم عن تكيس فى شرايين قاع المخ .. اسمه (تكيس بيرى) .. هذا

ضعف ولد به وأعلن عن نفسه فى لحظة حرجة.. لحظة انهارت الشرايين فيها ليتحول المخ إلى بركة دم .. »

قالت وهى تنظر للقدح :

ـ « قالوا شيئًا كهذا .. »

ثم أن الذكرى الأليمة عاودتها فبدأت تبكى . شعر بارتليبه بقلبه يرتجف ويخفق ... القلب الجريح الذى أدماه المبضع ، عاد للحياة بشكل ما من بعد الجراحة ..

لا تفعل .. لا تخضع للسحر .. هذه زوجة صديقك ..

لكن صوتًا آخر قال له : هذه ليست زوجته بل هى أرملته !

6 ـ انتقام يُقدّم باردًا ..

عندما عاد بارتليبه إلى سافارى كان قد ترك جزءًا منه فى فرنسا ...

وبرغم حفاوة الأصدقاء به ، وبرغم دموع البعض التى سالت فرحة للقائه ، فإنه ظل شاردًا نوعًا .. كان يعانى الشوق إلى دواء معين ، وكان هذا الدواء هنالك فى (بارب شا) ...

لا شك أن كرستيان كان على حق بانبهاره بتلك القطة الرشيقة الأنيقة قوية الشخصية . من يجرؤ على تحدى سحرها .. ؟

بارتليبه البدين المريض المكتنـــز الذى نسى النســـاء لفترة طويلة ، قد عـــاد يفـــكر بقـــوة فى امـــرأة . أرملة صديقى تختلف عن زوجة صديقى أو حبيبة صديقى .. لربما كـــان كرستيان نفســـه يتمنى أن أتزوجها لأعنى بها ..

هكذا كان يفكر بينما هو يدير شئون الوحدة .. يشير بيده المكتنزة ويهتز لغده العظيم ... نفس البدانة ونفس النشاط .. هرمون الثيروكسين يجعل كل الناس أنشط وأكثر نحولاً ، بينما مع بارتليبه يزيده بدانة .. حتى مع فقدان الوزن وحالة الإنهاك العامة ...

❋ ❋ ❋

ليلة مزدانة بالنجوم .. »

فلتجعل (باليتة) ألوانك زرقاء وخضراء ..

❋ ❋ ❋

كنت فى ذلك الوقت عاكفًا على تدبير خطة لعقاب أبراهام ليفى الوغد . لقد أحرجنى بقسوة أثناء المحاضرة مع كارين ، وعلى كل حال لقد تضخم رصيده عندى كثيرًا مؤخرًا ... المشكلة فى هذه الأمور أن تعاقبه دون أن يكتشف أمرك ، لأن تهمة معاداة السامية على طرف لسان الجميع . لو أخرج سكينًا أغمده فى بطنى فلا يجب أن أتأوه .. لو تأوهت لصرخوا :

« يا لك من متعصب معاد للسامية !.. هكذا العرب جميعًا .. »

لكنى ولله الحمد استطعت دائمًا أن أعاقبه فلا يلاحظ أحد ، ما عدا مثلاً تلك المرة التى نفانى فيها باركر مع بسام إلى قرى الفولانى .

كانت الخطة بسيطة جدًا وخالية من التعقيدات ... فقط تعتمد على أنه وغد ...

هكذا جلسنا نتابع محاضرة كارين ، وكنت أعرف أنه جالس هناك فى ذلك الموضع خلفى يراقب ما أفعله بفضول ... منتهى التدخل فيما لا يعنيه ...

وضعت تحت المنضدة مجلة البورنو التى استعرتها من طبيب إيطالى ، ورحت أقلب صفحاتها بصورها الفاضحة .. أقلبها بشكل ملفت للنظر جدًا .. نظر ليفى طبعًا وليس المحاضرة ..

فى الضوء الخافت يرانى أدارى المجلة ، وأتصفحها بشكل جدير بطالب مدرسة مراهق .. لابد أنه راح يغلى راغبًا فى فضحى .. لتكونن هذه الضربة القاضية لى .. ضربة الخلاص ....

دون أن تفارق عيناى شاشة العرض التى تشرح عليها كارين ، أخرجت جرابًا أسود مما يغلق بالسحاب ، وفتحته بحذر ثم كورت المجلة وأدخلتها فيه وأغلقتها. ودون أن أنظر حولى وضعت الجراب على المنضدة خلفى كأننى أنتظر انتهاء المحاضرة لأسترده بما فيه .. الحقيقة أنه كان فى متناول يده تمامًا ..

وعرفت على الفور أن الفضول سيقهره .. أعرف أنه مد يده فى خفة وتناول الجراب .. يريد أن يتأكد من أننى كنت أتصفح تلك المجلة فعلاً ....

لا يوجد كائن بشرى يقاوم هذا الاختبار خاصة إذا ما كان يكرهنى ..

وفجأة أطلق صرخة .. صرخة مما تطلقه الندابات عندنا فى مصر ، ولأذنى بدت للحظة كأنه هتف « يا خرااابى ! » ...

التفت الجميع للخلف ليروا ليفى يتواثب هلعًا .. والجراب قد انفتح فسقطت المجلة الخليعة .. خاصة عندما عادت الأنوار .. وكانت هناك أكثر من طبيبة رأت محتويات الكيس فتبادلن النظرات ثم سددن فمهن ضاحكات فى خبث ....

لقد قام الفأر الأبيض الذى أخذته من المختبر ووضعته فى الجراب بدوره .. أن تفتح الجراب فى الظلام فيثب فأر فى وجهك . هذه تجربة مستفزة للأعصاب لا ينجح فيها أحد .

النتيجة أن الكل رأوا ليفى يولول كالنساء ، ورأوا المجلة التى يتسلى بقراءتها أثناء المحاضرة .. فقد سقطت من الجراب عندما طار من يده .. نظر الجميع له ...

كان واقفًا يبحث عن كلمات . إنه ذكى وقد فهم على الفور أن شرح الموقف بلا جدوى .. القصة أعقد من أن يصدّقها أحد .. أنا كنت أشاهد مجلة عارية ووضعتها فى جراب ، وهو سرق الجراب فوجد فيه فأرًا ؟ طبعًا الصمت أفضل ..

هكذا اكتفى بأن قال :

ــ « آسف .. »

ثم جمع أوراقه وغادر القاعة محاولاً ألا يرفع عينيه .. بينما تعالت الهمهمة ..

نظرت للطبيبات الجالسات خلفى وضربت كفًا بكف وقلت بصوت مسموع للجميع :

ــ « يا للعجب !... طبيب ناضج كهذا ، وبرغم ذلك ما زال يطالع تلك المجلات القذرة !.... لم يعد هناك مستحيل فى هذا العالم ! »

وهتفت د. كارين غير فاهمة :

ــ « هل هناك شىء يا دكتور عبد العظيم ؟ »

قلت متظاهرًا بالبراءة :

ــ « مجلة خلاعية .. لا أدرى من جاء بها هنا يا سيدتى ! »

أجمل ما فى الأمر هو أنه يعرف تمامًا أننى تلاعبت به ..

أيها الفأر العزيز .. أيها الفأر العزيز .. أنت قمت بمهمتك. أرجو أن تهرب فلا يجدوك أبدًا ...

هذه ضربة .. ضربة ملموسة جدًا ، وإننى لفخور بها .. ما ألذ الانتقام ! لكن هل أستطيع استرداد المجلة لأعيدها للطبيب الإيطالى ؟

* * *

قال لى بارتلييه عندما ذهبت له فى مكتبه :

ــ « بلغتنى تفاصيل ما حدث اليوم .. يقولون إن ليفى راح يطالع مجلة عارية وتجاهل المحاضرة .. »

كانت المجلة نفسها على مكتبه ... فقلت له فى براءة :

ــ « قلت لكم إنه وغد يا سيدى فاتهمتمونى بالتعصب .. »

احمر وجهه وأردف :

ــ « طبعًا لا أصدق حرفًا من هذه القصة ، وأعرف أنك على الأرجح لعبت دورًا فيما حدث .. لها رائحة لعبة القط والفأر الأبدية بينكما .. »

ثم تذكر شيئًا فأضاف :

ــ « بمناسبة الفئران ... وجد عمال النظافة فأرًا أبيض فى قاعة الأوديتوريوم .. الفئران البيض لا توجد من تلقاء نفسها فى الطبيعة. من السهل أن نعرف من الذى أخذه من المختبر وتركه هناك .. لكنى لن أفعل .. سوف أكتفى بتحذيرك ... هذه لعبة خطرة .. »

لم أتكلم .. من الواضح أنه يعرف . هو ذكى فعلاً ، وأى كلام أقوله سوف يجعلنى كاذبًا فى نظره .. كما أنه لن يقتنع ..

هكذا آثرت الصمت ...

مد يده لعلبة من الأقراص فأفرغ منها قرصين وابتلعهما وشرب كوبًا من الماء .. ثم قال :

ــ « أدوية .. أدوية لكل شىء .. لقد تحولت إلى كتاب فى علم الصيدلة . بالمناسبة هل دروس كارين ممتعة ؟ هل استفدتم منها ؟ »

قلت فى صدق إننا استفدنا بشدة .. مما يؤسف له أنها ستتركنا قريبًا .

قال لى :

ــ « سوف أكرر التجربة . هناك خبير طفيليات طبية من شركة جلاكسو سميث .. سوف يزورنا لمدة شهرين بعد رحيل الدكتورة .. لكنى على كل حال سأكون موجودًا وقت رحيلها .. سأقيم لها حفلاً صغيرًا .. »

لم أفهم ..

ــ « ستكون موجودًا يا سيدى ؟ هل هذا يعنى أنك لن تكون موجودًا قبل ذلك أو بعد ذلك ؟ »

ــ « فى الحقيقة .. نعم .. »

وبدا على شىء من الارتباك وهو يضيف :

ــ « سأعـــود لفرنسا لفترة .. هناك بعض المسئوليات على عاتقى .. لا بد من العودة .. »

ــ « أرجو ألا تكون مضاعفات الجراحة .. »

ــ « بالعكس .. أنا فى خير حال .. »

ـ « هل هذا يتعلق بصديقك المتوفى يا سيدى ؟ »

بدا فى عينيه شرود .. كان يتكلم عبر المجرات والسدم .. قال :

ـ « نعم ... هناك أشياء .. »

ثم أدرك أنه يجب ألا يتكلم أكثر من اللازم ، وأن أوان تغيير الموضوع قد حان. أما أنا فكنت أفكر فى شىء واحد : باركر .. سوف يطلقون سراح الوحش المسعور من جديد .. ثم إنه يحب ليفى نوعًا ـ وهذا معناه أننى سأواجه خطرين معًا ...

شعرت أن دورى قد انتهى وطلبت الانصراف فى تهذيب ، لكنه طلب منى أن أبقى قليلاً.. كان بحاجة إلى الكلام مع شخص ما .. ما نطلق عليه بالعامية (الفضفضة) ...

عنـــدما جلســت بدأ ـ كما قلت لك ـ يحكى لى ما حدث فى زيارته الأخيرة لفرنسا . قلت لك إن الموضـــوع نفسى معقـــد .. يصـــعب تبرير أن يفضى رئيس وحدة سافارى بأسرار فؤاده لطبيب صغير عنده ، لكن هذا هو التفسير النفسانى للأمر .. كلما بعد الآخر عنك كلما سهل عليك الاعتراف له ..

هكذا حـــكى لى القصـــة .. بل حـــكى لى ملخص خطـــاب صديقه كرستيان ..

أمكننى بوضوح أن أستنتج ما حدث وما سيحدث.. هو واقع فى الحب حتى أذنيه. فجأة شعر بالوحدة مع اضطراب ظروفه الأسرية الشديد. هكذا خطر له أن بوسعه البدء من جديد ... يبدو أننا نتكلم عن الزواج هنا ....

لكنى لم أحب فكرة الفارق الزمنى الكبير بينه وبين مادلين . كما لم أحب فكرة أنها أرملة لثـــانى مـــرة .. هى نحس إذن أو على الأقل تلعب دور عنكبوت الأرملة السوداء بنجاح ..

لكن من أنا كى أعطيه نصائحى ؟ إنه أكبر منى سنًا وعلمًا ومنصبًا بمراحل. على أن أصغى وأبتسم فى أدب .. هذا كل شىء ..

بالفعل فى نفس الأسبوع كان قد طلب إجازة أخرى ، وعاد إلى باريس ..

لقد صرنا نمضى وقتًا أطول من اللازم من دون بارتلييه هذه الأيام .

7 ـ تعقـل أيهـا المخبـول ..

كنت خارج الوحدة عائدًا مع برنادت بعد جولة صغيرة ليلية ..

هى تحمل سارة بذلك الحرام الذى يتدلى حول العنق ملصقة رأسها بصدرها ، وأنا أحمل بعض أكياس الفاكهة التى ابتعناها من السوق .. هناك سوق تظل ساهرة قرب الوحدة ، حيث تباع الفاكهة الرخيصة على أضواء المشاعل.

هذا الجو العام من الإنهاك اللذيذ والسلام ، خاصة أن الغد هو إجازة الوحدة .. مع شعورك بأنك ستنام نومًا عميقًا ...

سألتنى :

ــ « هل من أخبار عن لويس الرابع عشر ؟ .. »

تقصد بارتلييه طبعًا ، وشنكت أنفها بطريقتها الساحرة ، فقلت :

ــ « إنه غــارق فى الحب .. لا أعتقــد أن عنــده وقتًا ليكتب للفانين من أمثالنا . هذا يستدعى أن يرفرف بجناحيه نحــو الأرض ويشم رائحة الوحل .. »

ضحكت لهذا التشبيه ، وضحكت سارة بدورها كأنها تفهم ..

هنا شعرت بشىء غريب يدور من خلفى .. رأيته بتلك العين الثالثة المثبتة فى مؤخرة رأسنا ، والتى نرى بها ما يحدث خلفنا ، وهى عين انقرضت مع تقدم الحضارة ... لم نعد نرى إلا أمامنا باستثناء لحظات نادرة ..

مثل هذه !!

كان التأثير خاطفًا لأن تلك الصفعة القوية هوت على قفاى فكادت تذهب بعقلى .. تذكرت ما كانوا يقولونه لنا فى الصغر أن صفعة على القفا قد تذهب بنور عينيك ..

هويت إلى الأمام وتماسكت بصعوبة لأرفع رأسى ..

لمحــت الدراجــة التى تبتعــد يركبها صبى أســود مراهق يلبس الشــورت وحافى القدمين ، وهــو يضحك عاليًا .... لقــد صفعنى وركض مبتعدًا ...

حاولت أن أتماسك حتى ألحق به ، لكنه كان قد توارى فى الظلام ، وكان الطريق مقفرًا فلا يمكن أن أجد متحمسين يمسكون به ..

أطلقت سبة عربية بذيئة وأنا أتحسس موضع الصفعة شاعرًا كأن النار تخرج من فقرات عنقى ..

قالت برنادت مذعورة :

— « دعه يبتعد .. هل أنت بخير ؟ »

— « أعتقد .. »

لكنى بالطبع لم أكن بخير ، فالصفعة هوت على مركز كرامتى فهشمتها .. تحتاج كرامتى لشهر من النقاهة حتى تشفى ، وربما تحتاج لجبيرة وجراحة كى تلتئم ..

أضف لهذا أننى قد أبتلع الإهانة لكن ليس أمام زوجتى و .... وابنتى، صحيح أنها لا تفهم شيئًا لكن المبدأ واحد ..

اعتدلت وتأبطت ذراع برنادت ، وقــد فســدت السهرة وشعور السلام تمامًا ...

قالت برنادت فى ذعر :

— « لماذا فعل ذلك ؟ الوطنيون مسالمون أقرب للتهذيب .. »

للأسف هذا حقيقى .. رأيت مواقف مشابهة فى مصر ، لكن سببها كان لذة الإيذاء والعبث ... المراهقون يحبون أن يؤذوا الآخرين ويهينوهم ، لكن هذه الرغبات السادية لم تصل هنا بعد . ما زالوا يتصرفون كالريفيين الطيبين عندنا ...

قلت لها وأنا أتحسس قفاى :

— « الأمر واضح .. هناك من دفع له كى يفعل ذلك ! »

— « ومن دفع له ؟ .. »

نظرت لها ولم أرد .. أعتقد أن الإجابة واضحة ..

❁ ❁ ❁

عندما أوصلتها للمسكن وتأكدت أنها والطفلة فى أمان ، بحثت فى الخزانة عن عصا المكنسة فانتزعتها وحملتها فى يدى كهراوة ، ثم غادرت المكان مسرعًا قبل أن ترانى ..

مشيت فى الطريق المظلمة التى تنيرها بعض مصابيح الفلورسنت ، معطية ذلك الجو الليلى المهيب... صوت ضفادع تنق وصرصور فى مكان ما ..

كنت أغلى غيظًا ، وقررت أننى سأنهى الليلة تاريخى مع وحدة سافارى ... الطبيب المصرى الذى أوسع زميل العمل الإسرائيلى علقة ساخنة .

أنا لا أحتاج لدليل .. أعرف جيدًا أن هذا انتقام ليفى مما فعلته به فى قاعة المحاضرات . تعال يا صبى .. هل تريد بعض الفرانكات التى لن تكلفك جهدًا ؟ هل ترى هذا الطبيب الملتحى هناك ؟ هو يغادر الوحدة مع زوجته ليلاً . أريد أن تنطلق بدراجتك لتوجه له أعنف صفعة ممكنة على قذاله .. أريد أن تهدم كرامته وشعوره بالأمان وأن تهينه ..

غلى الدم فى عروقى ..

الليلة يمر الصراع العربى الإسرائيلى بمنعطف حاد ..

أين ليفى ؟ فى مسكن الأطبـــاء على الأرجح .. ســوف ألقى به على الأرض ثم أوسعه ضربًا بالعصا وأبصق عليه ، وبالطبع سوف يملأ الدنيا صراخًا . سوف أتعرض للمساءلة القانونية والفصل من الوحدة غالبًا لكن ماذا يضير الشاة فى سلخها بعد ذبحها ؟

قابلت بسام بو غطاس التونسى الحبيب فى الممر المظلم ، فسألنى فى دهشة :

ــ « إلى أين تذهب بهذا الحماس ؟ »

قلت دون أن أتوقف :

ــ « سأضرب أبراهام ليفى ! »

ولم أنتظر لأسمع دهشته أو احتجاجه وواصلت خطواتي.

كنت أمر أمام الفيلا الصغيرة المخصصة للضيوف الموجودة فى نهاية ممر الأشجار ، والذى يقودنى لمسكن الأطباء .. هنا وجدت كارين الأستاذة الأمريكية العجوز تغلق الباب ويبدو أنها كانت ذاهبة لمهمة ما ، فلما رأتنى تهلل وجهها . ثم رأت السلاح الذى أحمله وخمنت أن الأمر غير طبيعى .. عندما أغضب فإن بوسعك أن ترى الشيطان يطل من حدقتى عينى .. لابد أننى أطلق دخانًا أسود كما فى القصص المصورة ..

ــ « علاء ... ماذا هنالك ؟ »

آخر شىء يمكن أن تقوله لأستاذة أمريكية تحترمها هو أنك ذاهب لضرب وغـدًا أهانك . لكنهـــا وقفـت لتسـد الطـريق أمامى .. كيانها النحيــل الضامر يتمتع بقــوة نفســية هائلة كأنها تزن أطنانًا ، ثم مدت يدها الهشة تمسك بيدى وجذبتنى إلى حديقة الفيــلا الصغيرة المحاطة بالسياج ، ثم فتحت الباب وقذفت بى للداخل .. قذفتنى بالمعنى الحرفى للكلمة ..

وقفت فى المدخل لا أعرف ما أفعله ، فأضاءت النور وقالت :

ــ « هذا المظهر العدوانى ... لا أعتقد أننى أبالغ لو قلت : إنك ذاهب لضرب شخص ما .. »

قلت فى عدوانية :

ــ « لست مخطئة بتاتًا .. »

ــ « هل لى أن أعرف ذلك المحظوظ ؟ »

قلت فى استسلام :

ــ « ليفى .. طبيب العيون الإسرائيلى .. »

وفى اللحظات التالية حكيت لها ملخص ما وقع بيننا .. عندما نظرت لى بعينيها الواسعتين الشفافتين وجدتنى أعترف بقصة الفأر ومجلة البورنو .. إلخ ...

قالت لى باسمة :

ـ « أؤكد لك أننى فكرت فى هذا .. كان تصرفك غريبًا مبالغًا فى التمثيل عندما تكلمت عن ليفى والمجلة الخلاعية .. شعرت بأنه مقلب .. هناك شىء صبيانى فى القصة .. »

ـ « اسمعينى يا سيدتى .. ليس هذا كل شىء .. »

هزت رأسها لتخرسنى وأردفت :

ـ « أنا أعــرف تفاصــيل هــذه الحــرب بينكما .. د. شيلبى حكى لى أنكما كسمكتى مقاتل سيامى فى حــوض واحــد .. لابد أن تفتــك سمكة بأخرى .. »

ـ « لن أكون أنا السمكة الميتة .. تأكدى من هذا .. »

جذبتنى للداخل وأجلستنى ثم عادت بعد لحظة ومعها كأس باردة فيها مشروب الجنجر (الزنجبيل). رشفت رشفة وشعرت بانتعاش ، فقالت وهى تجلس على مقعد وثير أمامى :

ـ « هل لديك دليل على أنه المسئول عن تلك الصفعة التى تلقيتها ؟ »

ـ « دليلى هو حدسى ... وهو لا يخطئ ... لقد قرر الانتقام ولم يجد وسيلة أكثر رقيًا .. »

جلست القرفصاء فى المقعد وثنت ركبتيها تحتها وقالت :

ـ « هذا ليس دليلاً .. كل ما ستفعله هو أن تخسر سمعتك ووظيفتك من أجل فرضية .. وفى النهاية سوف ينتصر هو .. سوف يتخلص من خصمه المصرى الذى ينغص حياته ، ولسوف يموت من الضحك وهو يتذكر وجهك وأنت تركض كالبلطجية ملوحًا بعصا مكنسة .. »

ـ « على الأقل سأفرغ هذا الخراج المتقيح فى روحى .. »

ـ « سوف يسبب طردك خراجًا أكبر . فكر فى مصر ... الصورة التى ستبقى فى الذاكرة للمصرى هنا هى صورة رجل مخبول يجرى بعصا مكنسة والشرر يتطاير من عينيه. لا شك أن أجدادك بناة الأهرام لن يسعدوا بهذه الصورة جدًا .. »

ثم أضافت فى حذر :

ـ « لا أخفى عليك أنه شخص غير مريح ، وهذا لا علاقة له برأيى السياسى ، لكننى أعتقد أنه قادر على عمل هذا وأكثر .. لا يوجد أمامك حل سوى ألا تجعله يربح .. أنت أكبر سنًا وأعقل من أساليب المدرسة الثانوية هذه .. التحرش والضرب واستعراض القوة .. »

ثم قالت فى خبث ، وقد بدت فى عينيها تلك النظرة اللعوب الصبيانية كأنها طفل ينوى عمل (مقلب) فى صديقه :

ـ « بعــد يومين ستكون محاضرتى عــن مضادات الالتهــاب غيــر الستيرويدية .. هل فهمت ؟ »

ثم إنها نهضت وتوارت بالداخل .. بعد خمس دقائق عادت لى وفى يدها ذاكرة كمبيوتر إضافية (فلاش) وناولتها لى ، وابتسمت وقالت :

ـ « سوف تعيدها لى غدًا ولن يراها أحد سواك .. اتفقنا ؟ »

وعندما ودعتنى للباب ، عدت إلى مسكنى ولم أنظر للخلف ... إن سهرة طويلة تنتظرنى مع الكمبيوتر ..

❁ ❁ ❁

عندما جلست فى المحاضرة نظرت للخلف ، فوجدت ليفى جالسًا فى مكانه المعتاد .. نظر لى وابتسم ابتسامة قاسية ، ولا أعرف هل هى صدفة أم أنه تعمد أن يضع يده على قذاله كأنه يؤلمه .. من دون حواجز أو أوهام هو يسخر منى .. يعترف أنه فعلها ...

تجاهلته وانصرفت بحواسى للمحاضرة.. ظهرت كارين العزيزة ، وبدأت الكلام عن مضادات الالتهاب. لن أزج بك فى تفاصيل طبية معقدة لا تهمك.. يمكنك أن تسترخى إلى أن يأتى الجزء المهم ..

توقفت كارين فجأة عن الكلام ، ثم سألت سؤالاً يتعلق بتأثير أحد الأدوية على العين .. ساد الصمت ، فوجهت مؤشر الليزر ليستقر على أبراهام ليفى ..

ـ « هل يمكنك أن تخبرنا يا دكتور ؟ »

أعاد ليفى سؤالها بصوت مسموع شأن من يحاول أن يستوعب ، ثم أطرق برأسه قليلاً... فى النهاية هز رأسه بمعنى أنه لا يعرف ..

قالت كارين :

ـ « هذا سؤال صعب على كل حال .. يجب أن تكون متخصصًا فى أمراض العيون لتجيب عنه ! »

هنا تعالت الضحكات .. وهتف البعض من دون حذر أن ليفى متخصص فى أمراض العيون فعلاً... هنا تساءلت كارين :

ـ « غريب ألا تعرف .. نحن فى مملكتك.. هل هناك من يقدر على الإجابة عن هذا السؤال الصعب ؟ »

رفعت يدى فى حماسة كأننى طالب فى الصف الثالث الابتدائى ، فقالت ضاحكة :

ـ « صديقنا المصرى المولع بلعبة (كاندى كراش) .. »

وأشارت لى كى أرد .. قلت الإجابة الصحيحة بصوت عال وحماس..

لقد قضيت أمس بالكامل أدرس الموضوع وأبحث عن إجابات أسئلتها. صرت أحفظ الموضوع مثلها أو أكثر .. ثم إنها أخبرتنى بالأسئلة التى ستطرحها على كل حال ...

قالت كارين :



ــ « أحسنت يا دكتور .. والآن سؤال آخر أعتقد أن صديقنا مختص أمراض العيون سيجيب عنه بسهولة .. »

ووجهت سؤالاً آخر أكثر صعوبة .. نظر لها فى غيظ مفترس ، ثم هز رأسه أنه لا يجد إجابة. هنا ارتفعت يدى من جديد .. فسمحت لى بالكلام. ذكرت الإجابة الصحيحة التى أحفظها جيدًا ..

ــ « أنت ممتاز حقًا .. »

هتفت كارين :

ــ « هل أنت متخصص فى أمراض العيون ؟ »

ــ « أنا جراح .. »

ــ « لم أعرف أن لعبة كاندى كراش مفيدة لهـذه الدرجة ، أو أن الجراحين هنا يجيدون أمراض العيون ! »

تعالت الضحكات وجلس ليفى ينظر للأرض. لقد أهين بشكل بالغ .. لم يجب عن أسئلة تتعلق بتخصصه بشدة ، وقد أجاب عنها جراح شاب ببساطة وسهولة ..

لقد أجادت كارين تخطيط الانتقام. انتقام بسيط نظيف راق وأشد إيلامًا من علقة بعصا المكنسة . لا شك أن ليفى كان يفضل ان أضربه علقة ساخنة بدلاً من هذا الحرج ..

لم تنس أن تؤلمه أكثر إذ قالت وهى تنظر له :

ــ « لا يجب أن يضايقك هذا .. نحن نمارس لعبة عقلية نربح فيها ونخسر بلا حزازات أو ضغائن .. »

بالطبع كان مفعمًا بالحزازات والضغائن ، ولا شك أنه خمن جزءًا من الحقيقة ..

كارين أيتها العزيزة ... أنت قد نلت ولائى كاملاً.. يمكنك أن تطلبى منى أى شىء ولسوف أفعله ...



8 ـ الحب الذى اكتمل ..

مادلين يا عزيزتى ..

أنت ساحرة .. بالتأكيد ساحرة جاءت من أرض الأحلام حاملة عصاها التى تنثر النجوم من طرفها ، راكبة قوس قزح . وكانت رسالتك محددة : « فليكن على الأرض حب .. فلتكن نشوة .. »

أنت ساحرة .. المرأة التى تقدر على أن تنشر كل هذه الشمس فى دنيا رجل مسن مثلى . رجل بدين متلاحق الأنفاس خرج من جراحة قلب مفتوح ، ويلهث لو مشط شعره ..

رجل كئيب لم ير أجمل من الأوبئة والفيروسات والأمراض الأفريقية العجيبة ، واختار لنفسه أن يعيش فى طرف بعيد من العالم وسط الفقر والمرض ، ولم يتعلم أى فن سوى فن السيطرة على برج بابل الذى يسمونه سافارى بمن فيه من جنسيات مختلفة ومشاكل لا تنتهى ..

أنت ساحرة .. هذا الرجل قد بدأ يشعر أن بوسعه البدء من جديد. ان يتهيأ لإسدال الستار ، ثم اكتشف أن هناك الكثير مما يمكن عمله فى هذا العالم .

جرب ذات مرة أن يأكل القريدس فى مطعم أسماك.. لم يكن بارعًا لذا حاول جاهدًا مصارعة الكائنات القشرية فلم يظفر بشىء .. وأوشك على أن يقوم جائعًا . كانت معه سيدة ذكية جذبت نحوها الطبق وبخبرة وسيطرة

استطاعت أن تهشـم القشرة .. واكتشـف أن هنـاك أطنانًا من اللحم الشهى لم يستطع الوصـول لها . هـذا بالضـبط ما حدث فى حياته .. لقـد حسب أنهـا انتهت ، فجئـت أنت لتستخرجى منها عشرات المتع ولحظات السعادة .. يبدو أنه كان أحمق فى الحب كما كان احمق فى أكل القريدس ..

مادلين يا عزيزتى .. إننى سعيد ..

أعرف أننى سأعيش طويلاً برغم حشد الأدوية التى أتعاطاها . كان ينقصنى الحافز وقد وجدته. أعرف أن كريستيان ليس متضايقًا .. أعرف أنه مسرور لأن حبيبة قلبه وجدت من يعنى بها ..

❁ ❁ ❁

كانت تعرف بذكائها أن بارتلييه لا يحب أن يُرى معها فى أماكن عامة. السبب هو بدانته وتقدمه فى السن .. لا يريد من يعتقد أنها ابنته ..

لهذا كانت معظم لقاءاتهما فى بيتها الريفى الجميل .. تناول العشاء هناك عددًا لا حصر له من المرات ، وحكى لها عن عمله ووحدة سافارى ..

قالت فى دهشة :

ـ « برغم ضخامتها حسب كلامك ، فأنا لم أسمع قط عن وحدة طبية بهذا الاسم .. »

ابتسم وقال :

ــ « لأننا لا نحب الدعاية والبريق الإعلامى .. نحن نعمل فى صمت ... هناك وحدة سافارى فى معظم البلدان الأفريقية باستثناء شمال أفريقيا .. »

عادت تسأله :

ــ « هل الكاميرون جميلة ؟ »

ــ « لو كنت مغرمة بالطبيعة فهى رائعة الجمال .. كما أن المدن الكبرى مثل (ياوندى) متحضرة ومريحة .. »

بعد العشاء كانت تشغل موسيقا هادئة ويجلسان صامتين لساعة كاملة. كان يحب (ليست) وقد اعترفت بأنها تحبه كذلك. كانت قطعة صغيرة أنيقة من الأنوثة كأنها نموذج لنساء العالم جميعًا.. كما تبتاع قصاصة من قماش لتدلك على الثوب كله . لها أجمل عينين يمكن أن تراهما ، كما أنه كان يمقت الشقراوات .. يشعر أنهن مبهرجات أكثر من اللازم . الأنثى الحقيقية هى ذات الشعر الأسود ...

كان الوقت يمر بسرعة وهو سيعود لوحدة سافارى قريبًا ليمنع البلهاء من قتل المرضى ، ويمنع باركر من افتراس الأطباء .. عليه أن يعرف ..

قال لها :

ــ « هل تعتقدين أن فارق السن عائق مهم يمنع الزواج ؟ »

فكرت قليلاً ثم قالت :

ــ « زوجى الأول كان يكبرنى بعشر سنوات ... زوجى الثانى كان يماثلنى فى العمر .. لا أعتقد أن هناك قواعد ثابتة .. »

ــ « إذن لا مشكلة فى الزواج من رجل يكبرك كثيرًا .. »

ــ « لا مشكلة .. »

ــ « حتى لو كان بدينًا كالدب ؟ »

ــ « هذا يجعله يبدو قويًا حاميًا يحتوينى .. »

تقريبا توشك على أن تعترف بحبها . لقد صار بارتلييه الشيخ على حافة السعادة .. فقط هى خطوة أخرى أخيرة .. كان مترددًا وخصوصًا بصدد أسرته التى تفككت أواصرها ... ماذا سيكون رد الفعل ؟

ولكن ليذهبوا للجحيم .. هذه حياته هو ..

هكذا وقف معها فى شرفة الدار يراقبان الغروب .. الغروب الذى ينحدر خلف صف الأشجار فى الأفق ، ليصبغ السماء بلون دماء الشمس المسفوحة . ثم قال لها :

ــ « هناك نساء جئن من رحم الطبيعة ، وقد خلقن كى يجذبن أقوى الرجال... هاته النساء لا يبقين وحيدات أبدًا .. الرجال لا يتركوهن وحالهن. أنت مثلاً فقدت زوجك الأول فظهر كرستيان على الفور .. فقدت كرستيان فظهر رجل آخر .. »

قالت فى دهشة هى نوع من (الاستهبال) كما تقول فى مصر :

— « رجل آخر ؟ »

— « أنت تعرفين من هو .. لكن هناك مشكلة واحدة .. »

وتحسس صدره المترهل .. تحسس موضع الجراحة وقال :

— « أنا متقدم فى العمر واهن القلب .. لو مت — وهذا وارد — فلسوف تلتصق بك سمعة سيئة .. المرأة التى مات لها ثلاثة أزواج .. »

أغمضت عينها وقالت :

— « أنت لن تموت .. أنا أعرف كيف أعنى بك .. أما لو فقدتك .. »

وأحاطت عنقه بذراعها :

— « فلن أطلب رجلاً آخر .. سوف أتحول لأرملة متوحدة تعيش على الذكريات .. »

شعر بأنه شجرة كافور عملاقة يتعلق بها نبات متسلق هش رقيق . الأمر كله يبدو مضحكًا لكن هل توجد أشياء غير مضحكة فى حياتنا ؟

لقد وقعت فى شباكه أو هو وقع فى شباكها لا يدرى بالضبط. ما يعرفه هو أنه ماضٍ فى طريقه ولن يتراجع .. لو حاول أحدهم أن يمنعه فلسوف يهشم وجهه .. لا أريد نصائح .. أنا فى نهاية رحلة العمر وأنا من يصدر النصائح للآخرين ولا أتلقاها ..

هكذا وجد نفسه يمسك بأناملها ويقول الكلمة :

— « هل تكونين زوجتى ؟ »

— « بالتأكيد .. »

❁ ❁ ❁

وحدة سافارى ..

الحلم البعيد الذى استهلك عمرى كله ...

الآلة التى صرت ترسًا فيها للأبد ، بل أنا محركها .. فى لحظة خيل لى أنهم لو فتحوا قلبى لوجدوا شعار سافارى ، فهو لا يتسع لشىء آخر ..

لن أتخلى عن سافارى ولن تتخلى عنى .. يجب أن أظفر بالحب والعمل معًا .. سوف تكونين معى هناك يا مادلين . سوف تجربين الحياة فى أنجاوانديرى ، ولسوف ترين رجال قبائل الكيكويو والبانتو .. سوف ترين المجذومين وهم يتوسلون من أجل الشفاء ، وتسمعين مثلى عواء المصابين بالكلب — بفتح اللام — والمصابين بالتهاب سحائى .. ترين مرضى الكزاز يتشنجون ، وتسمعين سعال المصابين بالدرن وبكاء مرضى الإيدز .. سوف ترين هذا كله وتشعرين بالسعادة برغم هذا .. سيكون هذا إيقاع حياتك ... مثل معظم أطباء سافارى سوف تشعرين بأنك تريدين الموت هنا ، وترفضين بشدة أن ترحلى لتبحثى عن حياة فى مكان آخر ..

أنا بحاجة لك يا مادلين .. وبحاجة للوحدة .. لن أتخلى عن واحدة منهما ..

سوف نعود معًا لسافارى ، وهناك سأتصرف كالقروى الذى عاد لقريته بفتاة الأحلام .. سوف ينبهر الجميع بحسنك ويتحدثون عنك ...

مع الوقت ستكونين سيدة سافارى التى يحبها الجميع ، لأنها لطيفة وليس لأنها زوجة المدير ، ولسوف يحكى لك من يتلقى عقابًا قصته ويطلب منك الصفح ..

ها نحن ذان نتقدم نحو المذبح ..

يدى فى يدك .. فى قفازك الأبيض الرقيق ، بينما الحضور يحبسون أنفاسهم ..

هذه المرة الثالثة لك فى هذا الموقف وأعرف أنها ستكون الأخيرة ..

الأرغن يعزف مارش الزفاف ، والأشبين يسألك إن كنت تقبلينني زوجًا فتقولين نعم .. نعم ... سوف تقبلين حبىَ برغم شبابى الذى ذبل ... وبرغم الندبة القبيحة على صدرى تشى بأن قلبى ليس على ما يرام .. تقبلين حبى برغم أطنان الشحم المحيطة بخصرى ..

أنا سعيد يا مادلين ...

البيت الريفى من جديد ..

العريس البدين يتقدم معك من المدخل بينما يقف السائق وكبير السقاة والوصيفة ينحنون فى إجلال واحترام . الكلب اللولو يتواثب غضبًا كعادة الكلاب الغيور التى تشعر بزوال عرشها . هذه المرة يدخل بارتلييه زوجًا سعيدًا ...

وقف للحظات ينظر لصـــورة كرستيان بوشيه المعلقة ، وهـــز رأســـه فى شىء مـــن الاحتـــرام . أنا لن أنســـاك يا كرستيان . سوف أعنى بها فلا تقلق ...

وقفت جواره وأسندت ذقنها على كتفه ، وراحت ترمق اللوحة معه ، ثم قالت :

ــ « فيم يفكر الآن ؟ »

ارتج لغده الشحيم وقال :

ــ « يفكر فى أنك فى أمان الآن ! »



9. المـــلكة ..

للمرة الثانية يعود بارتليه بعد إجازته القصيرة ..

عم السرور وحدة سافارى ، وعادت الحياة لإيقاعها القديم ..

لم أعرف الحقيقة إلا عندما كنت فى جولة العنابر مع آرثر شيلبى المتبختر .. وقف جوار فراش مريض بداء السراجة ودس يديه فى جيبى معطفه ، وقد رفع عويناته على مقدمة شعره كأنه يتنزه على شط البحر ، ووجه لى بعض الأسئلة عن التشخيص المصلى لهذا المرض . لم أكن بارعًا جدًا ورددت إجابة متخبطة ، فقال فى خبث :

ــ « مستوى الأطباء ينهار فى وحدة سافارى .. لن يسعد بارتليه بهذه النتيجة .. »

ثم أضاف وَهو يرسم بأصابع اليدين علامة القلب على صدره :

ــ « رئيس الوحدة مشغول بعروسه الجديدة .. لهذا تفسد الوحدة ! »

عروسه الجـ ..... ؟

يا للمجنون !.. هل فعلها فعلاً ؟ وبهذه السرعة ؟ كنت أتوقع فترة من التردد وحزم الأمور. فى النهاية يعدل عن قراره .. هكذا الأمور دائمًا .. لا أحد يتزوج . لم أتوقع أن يكون مندفعًا أحمق لهذا الحد ...

بالطبع كنت أعرف أنه لن يخبرنى .. الأقرب للمنطقى أن يخبر شيلبى أو باركر أو جيديون أو سبالاتزانى أو غيرهم من الديناصورات هنا .. هو فقط يصارحنى بعواطفه المضطربة ، لكن عندما يتخذ قرارًا دراميًا فالطبيعى أن يخبر به شخصًا ذا شأن ..

خرجت مع شيلبى خارج العنبر ، فأشعل سيجارًا غليظًا ونفخ سحابة كثيفة ... أنت تعرف أنه الشخص الوحيد هنا الذى لا يجسر أحد على مطالبته بعدم التدخين .. لا أحد يملك الأعصاب الكافية لمنعه ، برغم أن التدخين فى مستشفى جريمة . العالم المتحضر يمنع التدخين فى المقاهى والحانات فماذا عمن يدخن فى مستشفى ؟!!

سألته وأنا أقاوم السعال :

ــ « عروس جديدة ؟ هل .. هل تزوج ؟ »

قال فى خبث :

ــ « بالطبـــع .. هـــل كنت تتصور أن مدير الوحـــدة لا يملك قلبًا ؟.. الجراحون فتحوا صدره ووجدوا قلبًا محترمًا ضخمًا .. »

فكرت بعض الوقت .. هل أهنئه ؟ بالطبع لا .. لن أفتح فمى إلى أن يخبرنى بذلك ، وعلى كل حال أعتقد أن الغربيين متحفظون أكثر منا . لا أعتقد أنه سيوزع الشربات أو الجاتوه على أعضاء الوحدة .. لن يقف بالروب ليوزع أطباق الكعك بينما تزغرد السكرتيرة جرترود ، ويطلق باركر الرصاص فى الهواء من طبنجته ...

تقريبًا هذا هو ما حدث !

❁ ❁ ❁

فى السابعة مساء سمعت صوت النداء عبر مكبرات الصوت . أنا مطلوب فى غرفة المدير . أنت تعرف أن هذه الطريقة العتيقة لا تتغير فى سافارى أبدًا .. مثل القهوة التى لها مذاق حساء الأحذية ، والمراوح الصدئة فى الغرف ..

هكذا هرعت واجف القلب إلى مكتب المدير ، حيث كانت السكرتيرة الزنجية جرترود موجودة حتى ساعة متأخرة فوق العادة .. قالت لى :

ـ « الريس ينتظرك يا عسل .. »

ـ « أنت حبوبة قلبى ..

وقرعت الباب ودخلت لأجد مجموعة من أطباء الوحدة فى مكتب المدير .. هناك بعض زجاجات النبيذ والكولا وتورتة صغيرة .. الكل يشرب شيئًا ، والكل يحمل طبقًا صغيرًا فيه قطعة من الكعك ... جو عام من المرح ..

قال لى شيلبى بفم ممتلئ :

ـ « نحن نحتفل بزواج المدير .. هل هنأته ؟ »

قلت بارتباك لا ..

ثم تقدمت لأصافح بارتلييه الذى احتقن وجهه فى خليط من انفعال وخجل .. وكان يعرق بلا توقف .. قلت له بصوت خفيض :

ـ « أهنئك يا سيدى .. هل هى ....؟ »

هز رأسه فى مرح :

ـ « بالفعل .. هى .. إن الحب أقوى منا جميعًا والآن هل لك فى بعض الكولا مع قطعة كعك يا علاء ؟.. هلم .. فليقدم له أحدكم طبقًا .. »

ومن مكان ما ظهرت برنادت التى استدعوها من قسم الأطفال ، وكانت مندهشة مثلى بالضبط وهنأت الرئيس فقال :

ـ « أنتما تعرفان الحب .. عندما يعلن سلطانه لا يستطيع أحد أن يتملص .. »

سألته برنادت وهى مستندة إلى خزانة ملفات لأنه لا يوجد مقعد لها ، بينما هى تقطع الكعك بحد الشوكة :

ـ « وماذا عن السيدة بارتلييه ؟ هل ستظل فى فرنسا إذن ؟ »

كانت تعرف الخلفيات منى وقد أغاظنى هذا .. لقد كشفت بوضوح خلال كلامها التالى أننى حكيت لها كل ما قاله لى المدير ، لكنه لم يعلق وقال :

ـ « سوف تأتى بعد أسبوع وتقضى معنا شهرًا أو تبقى للأبد .. سوف تحبينها بشدة .. »

ووسط القوم الصاخبين رأيت الدكتورة كارين أستاذ الفارماكولوجى المسنة الظريفة. ضئيلة الحجم جدًا لدرجة أنها كانت ضائعة وسط هذا الزحام . لوحت لى بكأسها من طرف الغرفة فضحكت لها . سوف ترحل

قريبًا وتتركنا ، ولا أنكر أنها ستسبب قدرًا لا بأس به من الوحشة .. أحبها فعلاً ولكن ليس كامرأة بالطبع .. أحبها كعقل راجح وصديق ذكى ..

بعد نصف الساعة بدأنا ننسحب من المكان .. كل واحد ذاهب لعمله .. ومن جديد هنأنا المدير ثم خرجت مع برنادت والدكتورة الأمريكية كارين .. وقفنا للحظات فى الممر الطويل خارج المكتب حيث يقودنا إلى العيادات .. كان الهواء باردًا وثمة جو من الشجن لا أفهم سببه ولا تفسيره .. أنا أبكى دائمًا فى حفلات الزفاف ، لكن هذا لم يكن حفل زفاف ..

سألتنا كارين :

ــ « لا أعرف الكثير عن وحدتكم .. لكن اعتقادى أن هذا رجل نبيل .. رجل طيب يستحق السعادة .. »

قالتِ برنادت فى حرارة :

ــ « يستحق أفضل شىء .. لكنى متوجسة .. ليست الحياة لطيفة مجاملة لهذا الحد . أخشى أن يتحطم قلبه .. »

أضفت أنا :

ــ « وعندما يتحطم قلبه سوف يتحطم قلبه بالمعنى الحرفى .. إن قلبه مجروح أصلاً ومبضع الجراح كان يعبث فيه منذ قريب .. »

قالت كارين محتجة :

ــ « أنتما غريبا الأطوار .. الرجل يبدو سعيدًا فعلاً .. »

قلت فى شرود :

ــ « هذا ليس فيلمًا سينمائيًا ينتهى بالزواج والسعادة .. أعتقد أن هذه هى البداية وليست النهاية .. »

ــ « لا أفهم .. »

تأبطت ذراع برنادت وقلت ونحن نبتعد :

ــ « نحن نهذى بصوت مسموع .. لا تفكرى كثيرًا !! »

❋ ❋ ❋

أخيرًا وصلت العروس إلى الوحدة ...

عادت بها الطائرة الهليوكوبتر من ياوندى العاصمة ، وكان بارتلييه معها طبعًا . عندما هبطت الهليوكوبتر فى ساحة سافارى شعرنا بالخجل فلم يجسر أى واحد منا على النظر أو الخروج . من المحرج أن نظهر فضولنا ونعاملها كأنها نوع جديد من العينات ..

لكننا بعد قليل بدأنا نطل من جحورنا ..

استطعت بسهولة أن أدرك أنها مخلوقة فاتنة .. بالفعل كان كل من وقع فى حبها على حق . لا أعرف شكل كليوباترا الحقيقى لكن لابد أنها تبدو هكذا ، خصوصًا أن كليوباترا كانت قصيرة القامة .. بل ربما ذكرتنى بكليوباترا لأنها قريبة نوعًا من إليزابيث تايلور التى قامت بدور كليوباترا .

تلبس ثوبًا صيفيًا أبيض هفهافًا مع قبعة أنيقة وحذاء ذى كعب عالٍ ...

بدا مشهد دخولها الوحدة كأنها الملكة العائدة لوطنها .. حبس الكل أنفاسه وهى تدخل ماشية الهوينى مع زوجها المكتنز .. ثم تمشى معه إلى مسكنه الأنيق الشبيه بفيلا عند طرف الوحدة .. تجتاز الحديقة الصغيرة التى حرص على انتقاء نباتاتها وأزهارها ..

بدا واضحًا أنها معجبة بكل شىء ..

ومن مكان ما ظهر باركر وقد بدت عليه كل علامات الأفاعى ليأمرنا :

ــ « انتهى السيرك يا شباب . ليعد كل واحد لعمله .. »

هكذا تفرقنا مذعورين كالصبية .. بابا باركر ســوف يلهب مؤخراتنا بالعصا لو بقينا أكثر .

وقالت لى برنادت وهى تهرع معى نحو العيادات :

ــ « الملكة التى جاءت لتحكم ! »

قلت لها :

ــ « بصراحة هى مخلوقة فاتنة .. »

قالت فى غيظ :

ــ « هكذا أنتم معشر الرجال .. مجموعة من الحمقى لا تفقهون أى شىء .. »

كنت أعرف جيدًا طبيعة النساء هذه .. لو انبهرت بامرأة غيرهن فهى قبيحة بشعة وأنت أحمق ... أما لو أبديت اشمئزازك وكرهك فلسوف تصيح : غريب هذا !.. إنها من أجمل وأرق من عرفت ! لذا بدا لى تصرفها مبررًا جدًا وابتسمت فى خبث فقالت :

ــ « من الغريب أنك لا ترى .. هذه امرأة خطرة جدًا .. امرأة خلقت للسيطرة على الرجال . تبدو كأفعى وتتصرف كأفعى وتفكر كأفعى .. أنتم معشر الرجال تمارسون هوايتكم المعتادة فى الوقوع فى الفخ .. »

هززت رأسى وقلت :

ــ « لست أنا من تزوجها على كل حال .. ربما كان بارتلييه يعرف ما يقوم به .. »

قالت فى توحش :

ــ « أنت مقياسى على قدر البلاهة لدى الرجال .. هذا الأحمق سوف يقع فى الشرك .. »

ــ « سوف نرى .. سوف نرى .. »

10 - العشـــاء ..

أعداد محدودة جدًا من أطباء الوحدة بلغتهم الدعوة .

لا يستطيع بارتلييه مهما بلغ من كرم أن يدعو الجميع ، وإنما عليه انتقاء عدد محدود ممن يثق فيهم أو يحمل لهم مودة ، أو هم ببساطة مثل سبالانزانى لا يمكن تجاهلهم ..

كنت أنا فى قائمة (المودة) وكانت برنادت فى قائمة (من يثق بهم) أو العكس لا أدرى ..

هكذا كنت فى قسم الجراحة ، عندما ظهر بارتلييه شخصيًا عند الباب .. نادانى فى صوت هامس حرص على ألا يسمعه أحد ، وعندما اقتربت قال لى بسرعة :

ــ « أنت مدعو للعشاء مساء الأربعاء .. عندى فى المسكن .. »

هتفت فى ارتباك :

ــ « شكرًا يا سيدى .. إننى ... »

كنت قد رتبت أنا وبرنادت أن نجلس معًا لمشاهدة فيلم جديد حصلت على القرص المدمج الخاص به ، وهو فيلم حصد الكثير من جوائز الأوسكار .. رتبنا لذلك يوم الأربعاء ووعدت بأن تكون أمسية هادئة .. ستعد لنا البيتزا

بيدها ثم نجلس على الأريكة نشاهد الفيلم. لست مستعدًا لإفساد أمسية كهذه بحفل عشاء ..

لكن المدير قال بسرعة :

ــ « أنت وبرنادت طبعًا .. لا تخبر أحدًا أرجوك منعًا للحرج .. »

ثم ابتعد بينما وقفت أنا شاعرًا بالخجل .. بعد كل هذا الكرم يصعب أن أعتذر. برغم أن آخر ما أشتهيه هو الجلوس فى حفل عشاء منشى مع أشخاص لا يطاقون غالبًا .

أخبرت برنادت بذلك فشعرت بالغيظ ، وعلى كل حال كانت الثياب الأنيقة التى حضرنا بها تلك الأمسية عند كارين ثورنوالد ما زالت موجودة .. لم تتسخ ولم تذهب للمغسلة. هذا يجعل التفكير فيما نرتديه أمرًا غير مرهق. بالطبع لن نأخذ هدية لأننا فى ورطة مادية نسبيًا هذه الأيام .

وتخيلت الطعام الذى يمكن أن تقدمه تلك الملكة المتوجة على سافارى .. أم هى ستجلب طعامًا جاهزًا ؟ لابد أنهم سيجدون مطعمًا جيدًا فى أنجاوانديرى .

❁ ❁ ❁

فى التاسعة مســـاء الأربعاء مشـيت أنا وبرنادت إلى عش الزوجيـــة السعيد .. كنا فى غاية التعاسة والقرف لأن أمسيتنا فسدت ..

لم أزر بارتلييه فى حياتى فلم تكن علاقتنا لصيقة لهذا الحد. كنت أرى الفيلا الصغيرة من بعيد فأعرف أنه على الأرجح ليس هناك .. إنه فى مكتبه يأكل الطعام الجاهز ويقرأ تقارير الوحدة أو يدرس أوراقًا علمية أخيرة ..

شعرت بمرارة لأننا فقدناه .. بشكل ما كنت أشعر أنه سيموت فى فرنسا ولن نراه ثانية. الآن أدرك أنه سيعيش لكن من المستحيل أن يظل هو ... هذه المرأة سوف تأخذ أفضل ما فيه وتمتص حياته واهتمامه بالوحدة ..

وربما أكون أحمق ...

قرعنا الجرس ففتحت لنا عاملة فى وحدة سافارى هى (ماجدا) .. كاميرونية هى ، ومن الواضح أنه جعلها تعنى بالبيت وتساعد المدام ...

ـ « مساء الخير يا د. عبد العظيم .. أنت أنيق جـدًا .. أنت كذلك يا دكتورة عبد العظيم .. »

هززنا رأسينا مقدرين المجاملة . ودخلنا إلى ردهة ضيقة تقود لقاعة جلوس تناثرت فيها المقاعد رائحة السيجار وزجاجات الخمر المفتوحة. عرفت بعض الوجوه وهى وجوه توقعت فعلاً أن تكون هنا . لم أخطئ كثيرًا ...

كان آرثر شيلبى يقف وسط دائرة من الأطباء ، وهو يفيض ثقة بالنفس ومرحًا ، وهو يحكى لهم قصة مسلية وقعت له فى الولايات أثناء إجازته الأخيرة .. لما رآنى بطرف عينه هتف ملوحًا بكأس فى يده :

ـ « هاى علاء ! »

كانت كارين ثورنوايلد متأنقة بدورها وقد وقفت تتابع كلامه ضاحكة ... فلوحت لى بيدها ..

جاءت ماجدا تقدم لى صحفة عليها بعض المشروبات ، فانتقيت العصير طبعًا وكذا فعلت برنادت .. ثم جلسنا فى ركن القاعة نحاول التكيف مع كل هذا الصخب. يبدو أن العمل فى سافارى جعلنا حيوانات غير اجتماعية على الإطلاق ..

ثم أن بارتلييه ظهر وهو يتأبط ساعد زوجته .. بدا بدينًا وضخمًا جدًا وبدت هى رقيقة ضئيلة .. البدلة لا تناسبه وتتهدل حول جسده ، أما هى فكانت الأنوثة فى حد ذاتها ، بثوبها الأسود الأنيق وتصفيفة شعرها ..

توقف الجميع عن الكلام ، بينما لوح بارتلييه بكأس فى يده وهتف :

ـ « لأعـوام طويلة ظننت أننى قد تخليت عـن الحياة الأسرية للأبد .. لى تجربة غير ناجحة جعلتنى أشـاهد الحيـاة مـن الخـارج ولا أجسر على السباحة فيها ، لكنى اليوم أعلن أننى عـدت أسـبح فى الحياة .. مادلين أعادتنى للحياة ، وقد استرددت قلبى مرتين فى فتـرة وجيـزة .. مرة على يد الجـراح الفرنسى البـارع ، ومـرة على يدى الحسناء مادلين .. »

صفق الجميع .. ولوحوا بالكنوس على طريقة حفلات الكوكتيل ..

أخيرًا جاء موعد العشاء ..

جلست إلى المائدة وجوارى برنادت .. من الصدفة أننى وجدت نفسى جوار هذا الشىء الساحر مادلين . كانت بالفعل تتصرف كقطة .. تأكل كقطة .. تضحك كقطة لو أن القطة تضحك ..

كانت هناك كارثة .. إن الطبق الرئيس هو من السمك .. وأنا لا آكل السمك ولا المانجو أمام الغرباء أبدًا .. أعتبرهما من العورات التى يجب على المرء أن يختلى بنفسه وقت أكلهما .. هذه فضيحة .. أو ربما هى مشاجرة أخرج منها وقد اتسخت ذقنى وبقعت ثيابى . دعك من تلك الأكذوبة الشائعة : السمك يؤكل بالشوكة والسكين . لو لم يؤكل السمك باليد فلا طعم له ، ولو لم تؤكل المانجو على طريقة اللنبى فلا لذة فيها ..

هكذا رحت أعبث فى طبقى بالشوكة ، ثم تناولت بعض البطاطس الممهوكة ورحت آكلها فى نهم ..

قالت مادلين فجأة ومن دون أن أتوقع :

ــ « آسفة .. البطاطس لم تكن ملساء تمامًا .. اضطررت لطهيها كما هى . أرجو ألا تسبب لك المغص .. »

هذا يعنى أنها طهت الطعام بنفسها ... لكن لم أفهم ما تتكلم عنه .. فقالت :

ــ « البطاطس يجب أن تكون حبوبها ملساء ناعمة سليمة تمامًا .. أى انبعاجات أو شروخ فى الحبة تجعلها تطلق مادة السولانين Solanine ..

هذا خط دفاع طبيعى من النبات حتى لا يأكله أحد .. المشكلة أن هذه المادة تسبب مغصًا شديدًا حتى لو طهوت البطاطس جيدًا ! »

ثم أضافت باسمة :

ــ « لهذا كانت أمهاتنا ينقعن البطاطس فى الماء لفتـــرة قبـــل الطهى أو القلى .. هذا يقلل تأثير السولانين .. »

نظرت لها فى حيرة ثم واصلت الأكل .. لماذا تقول هذا ؟

ــ « ولماذا قدمت البطاطس أصلاً ؟ »

ــ « من أجل التنوع .. لكنى قدرت أن أحدًا لن يأكلها بسبب انشغالهم بالسمك .. »

على كل حال رحت أحاول بالشوكة أن أنزع من السمكة ما استطعت .. كان عشاء تعسًا بصراحة ..

بعد العشاء وقفت جوار النافذة المطلة على الشرفة ، أصغى للموسيقا وأراقب الناس ... ظهرت دكتورة كارين ووقفت جوارى وهى تدخن لفافة تبغ ، وتلقى الرماد فى مطفأة صغيرة على إطـــار النافـــذة . برنادت كانت واقفة تثرثر مع هيلجا شمطاء المختبر الألمانية .. هيلجا تنتمى لقائمة (من لا يمكن تجاهلهم) .. أنت تعرف أنها تفترس الأطفال ليلاً ..

ظللنا صامتين ...

آى !!...



بعد دقيقة جاء أستاذ جراحة العظام الفرنسى (جوزيف) ، وحيانا ثم أشعل لفافة تبغ ووقف معنا. تذكرت غرف التدخين فى المطارات حين يحتشد أشخاص لا يربط بينهم رابط حول مطفأة رماد .

آى ....!

كان وقــورًا أشيب الشعر حليق الوجــه ، يذكرك بملامح آلان ديلون نوعًا ... لا شك أنه كان وسيمًا جدًا فى شبابه. حاول أن يضفى بعض الحرارة على وقفتنا هذه فقال :

ــ « هى لا تعرفنى .. »

ــ « من ؟ »

ــ « مادلين .. العروس .. »

كان هذا طبيعيًا .. لابد أنها لا تعرف أى واحد منا ، فلماذا يفترض أنها يجب أن تعرفه وإلا فقد هلكت روحها للأبد ..؟

لكنه قال وقد رأى دهشتنا :

ــ « إن زوجها الأول قريبى .. ألم تلحظ أن اسمى جوزيف بنوا ؟ »

هذا لا يضيف شيئًا .. هناك الكثير من بنوا .. حتى مصور المخرج محمد كريم الذى صور معظم أفلام عبد الوهاب كان اسمه (بنوا) ... قلت لجوزيف :

ــ « أعتقد أن فرنسيين كثيرين اسمهم بنوا .. لا أعرف سوى أنه رجل أعمال .. لقد ورثت منه ثروة.. أليس كذلك ؟ »

هز رأسه ودفن عقب لفافة التبغ فى المطفأة وقال :

ــ « لقد حكى لى عنها الكثير .. إنها امرأة ساحرة فعلاً . ساحرة بالمعنى الحرفى والمجازى !.. »

وضحك طويلاً بينما رائحة التبغ الكريه تتصاعد من أسنانه. فعادت كارين تسأله محاولة الفهم أكثر . لكنى لم أسمع الإجابة ..

كان الألم يعتصر أحشائى .. مغص لم أشعر به منذ أعوام كأن هناك من دس لى الزرنيخ فى طعام العشاء. كانا ينظران لى بدهشة بينما هرعت أفتش عن الحمام .. الحمام .. الحمام أيها المخابيل .. ينظرون لى فى دهشة ..

ماجدا الخادمة تسد الطريق فصحت فيها بعصبية :

ــ « الحمام .. التواليت .. »

فأشارت بيدها وهى مذعورة إلى باب جانبى . هرعت إلى الحمام النظيف العطر ، وأغلقت الباب لأفرغ أحشائى .. ماذا حل بى ؟ ما هذا الانفجار المفاجئ وقد كنت بخير ؟

11 ـ رجيم قاس ..

قالت لى برنادت فى غضب :

ـ « هذه المرأة مرعبة فعلاً.. أنت تعرف هذا يقينًا ... ما كنت لألمسها بطرف عصا .. »

كنت جالسًا أمتص نصف ليمونة ، وأنا مفكك الأوصال .. لقد كان المغص قويًا بحق .. لو كان بوسع المرء أن ينزع جهازه الهضمى بعض الوقت ليريحه لكان هذا رائعًا ..

قالت وهى تروح وتجىء فى الغرفة :

ـ « كل هذا الكلام عن البطاطس وسم السولانين .. هل تجد له أهمية أصلاً ؟ لماذا تقوله لك ؟ هى فقط تظهر قوتها وسعة علمها .. لو كان ما أصابك بالمغص هو السولانين فهى امرأة مرعبة تعرف الكثير فعلاً ، ولو لم يكن السولانين هو السبب قد أوحت لك بالتسمم.. وهذا يجعلها امرأة مخيفة .. قرأت فى طفولتى عن طبيبة اعتقلها قاتل وهدد بأن يفتك بها .. طلب منها أن تعد له العشاء قبل أن تموت ، فأعدت له بعض المكرونة ، ولما راح يأكل أخبرته أنها دست له سم الفئران فى المكرونة وهى الوحيدة القادرة على إنقاذه. راح يتلوى ألمًا ويتقيأ إلى أن مات .. الحقيقة أنها لم تضع فى المكرونة سوى الكثير من الفلفل الذى أحرق

معدته وجعله يعتقد أنه تسمم ... أعتقد أن صاحبتك هذه فعلت بك شيئًا مماثلاً .. »

جلست ووضعت جهاز اللاب توب على فخذى ورحت أتفقد شبكة الإنترنت بحثًا عن كلمة سولانين .. أخيرًا وجدته ..

بالفعل كان كلام مادلين دقيقًا ... هذا السم موجود فى حبة البطاطس ويخرج عندما تقع الحبة أو تصطدم بالقفص أو تنبعج .. هذا يسبب مغصًا وتسممًا شديدين لمن يأكل الثمار بعد هذا. لذلك لا تمر أكلات البطاطس على خير دائمًا . أحيانًا تسبب عسر هضم .. الحل لاتقاء هذا هو أن تأكل البطاطس السليمة الملساء فقط ، أو تنقع البطاطس فى الماء قبل الأكل كى تخلصها من السم ..

قلت لبرنادت :

ـ « هى مختصة فى التغذية وتعرف عملها جيدًا .. »

ـ « وهى خطرة أيضًا .. لم أرتح لها البتة .. »

قلت فى برود :

ـ « لأنها بارعة الجمال .. »

ـ « ولأنكم بلهاء .. »

آى !... ما زال المغص موجودًا .. من الأفضل أن أنام ..

❋❋❋

بعد المحاضرة قابلت الأستاذة العجوز كارين ..

كانت واقفة مع طبيبين شابين تشرح لهما نقطة معينة ، فلما رأتنى تهلل وجهها . لقد صارت صديقتى فعلاً وعلاقتنا ممتازة .. هذا يسرنى طبعًا لأن احترامى لها بلا حدود ...

قالت لى :

ــ « هل شفيت ؟ يبدو أنك لم تتحمل السمك المتبل .. »

ــ « لم أذقه .. أعتقد أنها البطاطس .. »

ــ « لا أفهم .. »

حكيت لها بسرعة قصة السولانين وما قالته مادلين. أصغت باهتمام شديد ثم قالت :

ــ « هذا غريب .. وهذه المرأة واسعة العلم ، لكن من الغريب أن تقدم بطاطس تعرف أنها ستسبب المغص لآكلها .. سلوك غير معتاد .. »

ــ « قالت : إن الوقـــت لم يســمح بالبحث عــن بطاطس ملســاء .. وقدرت أن أحدًا لن يأكل البطاطس ، بينما أنا ملأت بطنى منها بالمعنى الحرفى .. »

قالت وهى تضحك :

ــ « لم أشعر براحة كبيرة لهذه السيدة .. »

ــ « برنادت ترى ذلك مثلك .. »

أضافت وهى تتأبط ذراعى متجهة لمكتبها :

ــ « هل يضايقك أن تتوكأ عليك امرأة عجوز ؟ لا ؟ شكرًا لك ... أمس رأيت أتكلم مع ذلك الطبيب الفرنسى .. ما كان اسمه ؟ »

ــ « جوزيف بنوا .. »

ــ « نعم . نعم .. حكى لى عن زواجها من قريبه رجل الأعمال الفرنسى الذى توفاه الله .. لقد عرف قصتهما واندهش من أمور كثيرة. لكنه يؤمن أنها لم تحب زوجها قط .. »

ثم نظرت فى عينى وتساءلت :

ــ « هل تعتقد أنها تحب المسيو بارتلييه ؟ »

ــ « أعرف يقينًا أنه يحبها جدًّا .. هذا ما أعرفه .. »

ــ « فلنترك الأيام تحكم .. »

قلت لها ما معناه :

ــ « لندع الخلق للخالق .. »

❁ ❁ ❁



وقع خلاف قوى مع باركر اللعين ، فهو مصر على أننى لم أتواجد فى عنبر الحروق أمس . قالت الممرضات إنى لم أظهر .. بينما كانت الحقيقة هى أنه لم يتم إخطارى قط ..

لا أنكر إننى لا أطيق عنبر الحروق .. المناظر .. الروائح .. الألم .. لكن لابد أن يقوم شخص ما بهذه الأعمال .. لسنا فى فندق لو أردت رأيى . كنت أقوم بعملى وبطنى تتقلص وأدعو الله أن يكون هذا فى ميزان حسناتى يوم القيامة .. لا شك أن كل حروق العالم لا تكفى للصفح عن آثامى . لا بأس ببعض مشاهد الحروق البشعة .. هذا أفضل من أن تحترق أنت نفسك ..

لهذا تجـد أننى لم أهـرب من عنبـر الحـروق ، لكنـه خطأ إدارى هم المسئولون عنـه ، وأنا لم أعتـد من قبل أن أقوم بعمل لم يطلبه أحد منى ..

النتيجة هى أنهم قدموا شكوى ضدى ، وهذه الشكوى مرت بخطوات التفاعل المتسلسل النـووى المعتـادة حتى بلغت قلب المفاعل الخطر : باركر .. باركر المفترس الذى يوشك على التهام أذنه نفسها لو استطاع الوصول لها ..

هكذا انقض على الوجه الأحمر والشارب الأبيض والعينين الزرقاوين .. مستر جون بول شخصيًا .. لابد أن جده كان ممن شنقوا الفتى زهران فى دنشواى ..

قال لى فى برود :

— « هذا ليس فندقًا أيها الشاب لو أردت رأيى ! »

قلت له :

— « كنت أقول لنفسى الشيء ذاته يا سيدى .. »

— « عليك أن تثبت أنه لم يتم إبلاغك بموعد النوبتجية ! »

هذا مستفز .. البينة على من ادعى . عليه هو أن يثبت أننى تلقيت جدولاً أو أخطرت بمواعيد المرور فى عنبر الحروق ولم أنفذ . هذا الرجل مجنون .. سوف أترك وحدة سافارى متهمًا بضربه حتى الموت .. لا شك فى هذا ...

هكذا تركته حيث هو واتجهت إلى مكتب المدير ..

قالت لى جرترود الزنجية وهى تلتهم شطيرة حيث جلست على مكتبها ، بينما يدها اليمنى تضرب على مفاتيح الكمبيوتر :

— « تبدو مستعدًا لقتل أحد يا حليوه .. »

— « أنا كذلك يا حبوبة .. »

واقتحمت المكتب لأجد بارتلييه جالسًا يشرب العصير من زجاجة صغيرة وقد بدا عليه الاشمئزاز . ليس بسببى لكن بسبب ما يشربه على الأرجح . جلست على المقعد أمامه وقلت :

— « سيدى .. أرجو أن تساعدنى على عدم الفتك بدكتور باركر .. إنه يتحرش بى ويتصيد أخطائى .. »

نظر لى من وجهه الشحيم بضع ثوان ثم قال ضاحكًا :

ــ « وما فى ذلك ؟.. إنه يتحرش بالجميع حتى أنا .. هناك أشخاص يعتقدون أن دورهم فى الحياة هو جعل حياة الآخرين جحيمًا ، وبينى وبينك أعتقد أنه لابد من واحد من أجل الضبط والربط .. »

ثم أضاف قبل أن أحتج :

ــ « سوف أطلبه وأفهم ما يحمله ضدك .. سأكون عادلاً فلا أجاملك أو أجامله. سأعاقبك بلا تردد لو وجدتك مخطئًا .. »

ــ « إنه يجعل الحياة جحيمًا فعلاً كما قلت .. »

ــ « أول درس نتعلمه فى حياتنا هو أنك لا تختار رؤساءك .. »

ثم إنه مد يده فى الثلاجة الصغيرة جواره وأخرج زجاجة صغيرة بها سائل أصفر ، وقدمها لي . رفعت الزجاجة شاكرًا لفمى فصدمنى المذاق المر الكريه .. ما هذا العصير ؟ عصير ضفادع ؟...

لما رأى الاشمئزاز على وجهى قال :

ــ « عصير جريب فروت .. واضح أنك لا تحبه برغم أنه مفيد جدًا .. »

وضعت الزجاجة وبصقت فى منديلى .. وحاولت أن أبعد المذاق عن فمى وذاكرتى وقلت :

ــ « لو أردت الفائدة الصحية فقط لشربت عصير البرسيم .. أو لأكلت الكبد نيئًا . أنا أبحث عن المذاق يا سيدى .. المذاق أولاً .. »

قال وهو يخرج من الثلاجة ثمرة جريب فروت كبيرة :

ــ « العصير لا يجدى كثيرًا كما تجدى الثمرة ذاتها .. لابد للحصول على النفع أن تكون هناك ألياف .. »

تساءلت فى حيرة :

ــ « أى منفعة ؟ »

ــ « فقدان الوزن طبعًا .. هذه هى ثمرة فقدان الوزن السحرية .. حرق سعرات وإفقـــاد شهية .. إن مادلين جعلتنى أعيش فى جنة الجريب فروت ــ أو جحيمه حسب ذوقك ــ كى أفقد وزنى .. أعيش فى حالة ريجيم دائمة ، وتقـــول : إنها تريد أن أفقـــد عشرين كيلوجرامًا على الأقل لتطمئن على صحتى .. »

ثم أضاف ضاحكًا :

ــ « لا تتزوج خبيرة تغذية أبدًا لو كنت تعشق الاستمتاع بالطعام .. »

بارتلييه يصير نحيلاً ؟.. لقد ضمر كثيرًا بعد الجراحة لكن لا أتخيل أن يصير رشيقًا كغزال . سوف يكون كالكيس الفارغ ... هناك أشخاص تم تسكينهم فى خانات واستقروا فيها .. هناك من هو نحيل وهناك من هو بدين ، وأنت لا تقدر على تصور أى واحد منهم فى مكان مختلف. البدين يبدو كئيبًا سقيمًا بعد فقدان الوزن ، والنحيل يبدو سمجًا عندما يزداد وزنه . أما الأكثر تعاســـة فهم الأشخاص فى الوســـط .. الذين لم يجدوا خانتهم

بعد .. يحاولون طيلة الوقت ألا يدخلوا خانات البدانة ويفشلون . السمنة تناسب بارتلييه فعلاً .

رأيته يفتح الثلاجة ليخرج .. يخرج مرطبانًا به مادة مقززة ، ثم اكتشفت أنها مربى جريب فروت ! تناول قطعة من خبز التوست المخصص للرجيم ودهنها بالمربى ، ثم رفع الشريحة لفمه وبدأ يقضم وهو يقطب جبينه من الاشمئزاز . لابد أن المذاق لعين فعلاً... لابد أنه بعد قليل سيدهن جلده بالجريب فروت أو يشمه كمدمنى الكوكايين ...

يبدو أن مادلين قد أنشبت مخالبها فى أرجاء عالمه فعلاً ...

12 ـ وفاة زوج ..

الفقيد ميشيل بنوا ــ أول زوج لمادلين ــ كان فخورًا بزوجته الفاتنة عندما كان حيًا طبعًا ..

كان ميشيل فى الخمسين من عمره ، وقد كون ثروة لا بأس بها .. هناك عدة علامات تجارية تحمل اسم بنوا . يملك أكثر من بيت فى باريس وحولها ، وحسابه المصرفى يدير الرءوس ، كما أنه يملك أسهم شركات عديدة ..

هذا الرجل الناجح كان يعطيك انطباعًا أنه فى السبعين وليس الخمسين. كل مشكلة وكل قلق وكل صدمة فى حياته أحرقت خصلة شعر وتركت خمس تجعيدات .. لقد جمع ثروته بثمن فادح فعلاً . صحته كذلك لم تكن على ما يرام وكان يتعاطى الكثير من أدوية ارتفاع الضغط ، مع عقار ديجيتالا بسبب اضطراب ضربات القلب ..

ذات مرة ارتفع ضغط دمه لدرجة غير مسبوقة فمر بحالة شلل نصفى استغرقت بضع ثوان .. أصابه هلع شديد وهو ملقى على الفراش يحاول النهوض ويئن .. لحسن الحظ مرت النوبة .. عرف بعد هذا أنها نوبة نقص عابرة فى دم الدماغ .. ليست كارثة لكنها بروفة لما سيحدث بعد فترة .. كأن شرايين المخ تنذره بقرب النهاية ..

استغنى عن التدخين وقلل من وزنه ، وتردد على طبيب بارع نجح فى التحكم فى ضغط الدم . وقد صمم على أن يخفض من اندفاع قطار حياته بعض الشىء .. لن يجد وقتًا كافيًا لينعم بما جمعه من مال .

هنا ظهر أروع شىء رآه فى حياته .

كانت أخت موظف لديه فى الشركة ، وقد رآها .. ثم سأل عنها مرارًا وبدا أنها لاحظت نظراته ، كما بدا واضحًا أن أخاها مستعد لبعض التساهل ما دام هذا يكسبه نقاطًا عند المدير .

هذه الشيطانة الساحرة الصغيرة الشبيهة بجنيات القصص ، كانت خبيرة تغذية فى أحد مراكز التجميل قرب الشانزليزيه . سمراء ساحرة قوية الشخصية ..

وقد عرف منذ اللحظة الأولى أن الطريق الوحيد للفوز بها يمر بالكنيسة ..

كان يذهب فى كل مساء إلى النادى ليلعب البلياردو مع أصدقائه ويشرب كأسًا من البورتو. هناك كان يقابل قريبه أستاذ جراحة العظام جوزيف .. وهو يعمل فى منظمة طبية فى بلد أفريقى .. لعله غانا أو سيراليون .. لا يذكر بالضبط ، كما أنه لا يذكر اسم المنظمة .. قريبه فى إجازة حاليًا .. وهو يعود للوطن فترة قصيرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر ..

كان يحكى لقريبه عن غرامه الوليد هذا ..

كان يقول له :

ـ « لقد احترق كل شىء فى جسدى حتى قلبى نفسه .. ولم أتصور أنه مكن أن يخفق من جديد .. »

فيقول له قريبه جوزيف :

ـ « إذن .. لا تتردد . .. »

من الواضح أن الثرى المسن قضى حياته كلها فى جمع المال ، فلم رف ذلك الاختراع الساحر : الأنثى . وكانت معلوماته عنهن شبه عدومة ، لذا كانت سقطته كاملة وانبهاره شديدًا .

استطاعت هذه الساحرة الصغيرة أن تبدل كل شىء فى حياته .

صبغ شعره وذهب لمختص فى الجراحة من أجل بعض حقن البوتوكس زيل تلك التجاعيد الكريهة .. ابتاع ثيابًا أصبى ووضع عوينات أنيقة .

قدمها لكل رفاقه ، ثم اصطحبها لتزور أخاه الذى يعمل مهندسًا فى نبلييه .. وفى كل يوم كان يكتشف آفاقًا جديدة من الحياة .

أدرك أنها عطشى للمال .. لم تكن ثرية يومًا .. إنها مادية كما تعرف قواميس لفظة (مادية) .

وهو كان يؤمن بمقولة البيتلز فى الأغنية :

« أنا لا أبالى بالمال .. فالمال لا يقدر على أن يشترى لى الحب .. »

ذا أغرقها فى بحر من الهدايا ، وكان ينتظر كل مناسبة ليقدم لها هدية ،

لدرجة أنه كان خليقًا بأن يهديها سوارًا من العقيق لأن هذا يوم قطع رأس
لويس السادس عشر أو احتلال باريس !

قالت له مادلين :

ـ « عندما نتزوج سوف أجعلك رجلاً سعيدًا .. سترى .. سوف أعيد لك
صحتك .. »

ضحك كثيرًا وقال لها :

ـ « كيف تفعلين ذلك ؟ هل تعرفين موضع ينبوع الشباب ؟ .. »

قالت فى ثقة :

ـ « أنا خبيرة تغذية .. أعرف مفاتيح الشيخوخة والشباب .. سوف
ترى .. »

تذكر قصة انتقام زيوس من ابنته التى وقعت فى غرام بشرى فان
وطلبت له الخلود وكانت وقحة مع أبيها .. انتقم منها زيوس بطريقة خبيثة
هى أنه منح الرجل الخلود فعلاً لكن لم يمنحه الشباب .. وبعد 200 سنة
بدأت الابنة تشمئز من حبيبها الذى تحول إلى مومياء حية ، فسحرته
جندبًا !

ترى هل تسحره مادلين ضفدعًا يومًا ما ؟

❁ ❁ ❁

هناك فى بيته الريفى فى (بارب شا) حاول أن يعطيها كل شىء .. كل
شىء عدا الشباب والحيوية طبعًا ، وكانت هى سعيدة فعلاً . فى الصباح
تجول فى المكان على دراجة هوائية ثم تعود لتستلقى فى الشمس على
حافة حمام السباحة وجوارها كلبها يلعب . ثم تركب الحصان الجميل الذى
أهداه لها فتركض عبر الحقول . فى المساء لابد من سهرة .. إما فى البيت
الريفى أو هما يقصدان باريس فى رحلة تستغرق ساعة تقريبًا ، لينعما
بالسهر فى مفاتنها مع الأصدقاء . وفيما بعد صارا يمضيان وقتًا أطول فى
باريس بحكم عمله طبعًا .

لم يكن ثراؤه فاحشًا لدرجة أن نطلق عليهما (طبقة النفاثات) ، لكنه
بالتأكيد كان قادرًا على أن يجعلها تعيش فى رفاهية حقيقية ..

أما هى فقد حافظت على صحته وراحت تتأكد من مواعيد أدوية الضغط
التى يتناولها ..

كما أنها نظمت أكله وحرصت على أن يكون متوازنًا مغذيًا ، كما حرصت
على أن يقوم بجولة يومية على القدمين ويركب الدراجة ..

قالت له ضاحكة :

ـ « هناك مشروب سحرى لا يعرف الناس قيمته ولا نفعه .. إنه مفعم
بمضادات التأكسد ويطيل العمر ويصلح كل خلل فى جسدك .. »

سألها باسمًا :

ـ « هل ستملئين بطنى بعصير الطماطم كما أتوقع ؟ »

ــ « بل بجذور نبات جليسيريزا جلابرا ! »

فكر وهو يحك رأسه :

ــ « هذا اسم مرعب بما يكفى .. وما هى بالضبط ؟ »

قالت ضاحكة :

ــ « هناك اسم أسهل .. عرق السوس Liquorice ! »

وهكذا ظهر ذلك المشروب ليملأ كل شىء فى حياته .. صارت تجعله يشرب ثلاثة أكواب يوميًا . وكان يمقت طعمه الذى يذكره بالتربة ويجعل عضلات فمه تتقلص ، كما أنه كان يكره كل المشروبات الرغوية بما فيها البيرة لأنها تذكره بالبول ، لكنها كانت متمسكة بأن تعالجه ..

كانت كذلك تقدم له أنواعًا فاخرة باهظة الثمن من الآيس كريم .. لا أستطيع ذكر أسماء منعًا لشبهة الدعاية لكنك تعرف بالتأكيد (ب . ر) وسواه من علامات تجارية.

قال لها :

ــ « حسبت الآيس كريم مضرًا بالصحة ؟ »

ــ « ليس هذه الأنواع الفاخرة .. »

وفى كل يوم كانت تجلب جهاز الضغط لتفحص ضغط دمه وتتأكد من الأمور على ما يرام. أنت تتحسن بلا شك ... وعما قريب سوف تتخلص من تلك الأدوية اللعينة التى تضعف رجولتك ..

ميشيل بنوا منبهر ..

ميشيل بنوا سعيد ..

وفى النادى قال لجوزيف وهو يمسك بعصا البلياردو :

ــ « هذه ليست امرأة عادية .. إنها جنية ذات جناحين .. »

قال جوزيف ضاحكًا :

ــ « كل هذا لأنها ترغمك على شرب عرق السوس ؟ »

ــ « يخيل لى أحيانًا أنها تعـرف كـل شىء وتفهم كل شىء .. امرأة نادرة .. »

ثم مد يده فى جيبه وأخرج قطعة سوداء من الحلوى ودسها فى فمه .. فهم جوزيف الأمر فهتف مندهشًا :

ــ « والحلوى كذلك ؟ تأكل الربسوس فقط ؟ »

ــ « هكذا تريد منى وأنا لا أريد أن أغضبها ! »

وراح كالعادة يحاول إقناع قريبه بأن يتزوج سريعًا ويكف عن التدخين ويكف عن الذهاب إلى غرب أفريقيا لأن الملاريا ستقتله يومًا ما أو تلتهم النمور مؤخرته ..

ــ « لا توجد نمور فى أفريقيا .. »

ــ « سوف تجد نمرًا هاربًا من السيرك فأنت منحوس .. »

❁ ❁ ❁

جاء الموت فى ليلة جميلة من فصل مايو .

هذه ليلة ممتازة للموت .. موحيـــة جـدًا .. أنت تجلس أمام التلفزيون بعد العشاء شاعرًا بأنك لست على ما يـرام .. الإحســـاس الشديد بالحر مع صداع يوشـــك على أن يشـق دماغك نصفين .. عرق بارد يغمر جبينك .

تتجه للحمام لتغمر وجهك بالماء البارد ، هنا تدرك أنك فى دوار شديد وأنك موشك على القىء .. بالفعل تفرغ معدتك فى المرحاض لكن الراحة المعتادة المدخرة للمتقيئين لا تأتى ...

تخرج مترنحًا وتجلس على الأريكة .. هل الطقس حار ؟ أين ذهب الهواء ؟ افتحى جهاز التكييف .. افتحى النوافذ ....

تقول مادلين :

ــ « ميشيل .. هل أنت بخير ؟ »

لكن صوتها يأتى من بعيد .. من خلف الحجب. والحقيقة التى تدركها هى أن جانب جسدك ثقيل جدًا وأنك عاجز عن الكلام مثلما حدث فى تلك النوبة منذ أعوام ..

ــ « ما بك ؟ .. »

صوتها يأتى من بعيييييييييييييييد ... من وراء السحب وما وراء الوجود ..

تحاول أن تقول لها إن ضغط دمك عال على الأرجح لكنك لا تستطيع الكلام.

تدرك فى هلع أن وعيك ينزلق وأن الظلام يسود ..

هناك هوة عميقة تحت قدميك وأنت تهوى فيها بسرعة رهيبة .

لحسن حظك لم تظل واعيًا حتى تلمس القاع ..



13 - الأرملـة السـوداء ..

آخر محاضرة لكارين ثورنوايلد ..

لا شك أننى صرت من أصدقاء علم الفارماكولوجى ولم أعد أحمل له الضغينة السابقة . إنه مهم جدًا وليس ذنبه أنه عسير .. لا شك أن برمجة لعبة كمبيوتر عملية معقدة جدًا لكن النتيجة مذهلة .

آخر محاضرة لكارين وبعدها ســوف يصل خبير آخــر ليلقى عدة محاضرات ، وعلى الأرجح لن أكون مكلفًا هذه المرة بالحضور ، ولو كلفونى فلسوف أنزع الحذاء وأنام كالعادة ولربما ألعب كاندى كراش...

القادم هو خبير طفيليات طبية من شركة جلاكسو سميث كما قال بارتلييه .. الويل للجميع !

اليوم كانت ستتحدث عن الأدوية المناسبة للشيوخ ..

دخلت القاعة وجلست فى موضعى المعتاد .. لم يعد أبراهام ليفى يحضر ، ومن الواضح أنه تلقى إهانتين ممتازتين فتحطم كبرياؤه .. صار هذا المكان مسرح جريمة لا يحب أن يعود له ..

فوجئت بشخص بدين يدخل وهو يترجرج ، وألقى بنفسه على مقعد فى أول صف ..

اكتشفت فى دهشة أن هذا بارتلييه نفسه .. المدير هنا .. واضح طبعًا أنه جاء على سبيل المجاملة لأنها محاضرة كارين الأخيرة ...

ابتسمت له الدكتورة ابتسامة مجاملة عملية ثم بدأت تتكلم .. وعلى الشاشة ظهر العرض التقديمى الخاص باليوم (طب الشيخوخة) ...

لابد أنها تكلمت عشر دقائق ، ولابد أننى بدأت أشرد فرحت أحاول جاهدًا أن أعيد عقلى لما تقول .. أفكارى حصان جامح لا يكف عن الركض والرفس ..

هنا سمعت أنينًا ..

سمعت من يقول :

ـ « لا تقلقوا ! »

ومن يقول :

ـ « امنحوه بعض الهواء ! »

ومن يقول :

ـ « هاتوا محفة ! »

نهضت لأتبين بينما أضاء أحدهم النور الكهربى فرأيت بارتلييه ساقطًا على وجهه فوق (البنش) وقد أغمض عينيه .. لكنى من مكانى أدركت أن وجهه شاحب تمامًا ... العرق يسيل منه بغزارة ..

ـ « أعطوه مجالاً للتنفس ! »

هرعت أتواثب فوق المقاعد حتى خرجت من القاعة ، وأحدثت قدرًا هائلاً من الذعر والصراخ فى الخارج حتى جاء من يحملون محفة .. وعلى الفور كان يرقد على ترولل ... كان ثقيل الحجم طبعًا فبدا الأمر كأنك تحاول إنامة فرس نهر ..

ورأيته يفتح عينيه وينظر لى ، وشبح ابتسامة يتلاعب على شفتيه ... لقد اطمأن لوجودى جواره برغم كل شىء ..

اندفعنا نحو قسم العناية المركزة.. وسرعان ما كان عدد من أطباء القلب والأمراض العصبية قد جاءوا .. طبيب قلب كاميرونى لف الربطة حول ذراعه وقاس ضغط الدم ثم هتف :

ـ « هبوط شديد فى ضغط الدم .. خلل فى الضربات .. »

وسرعان ما كانوا يثبتون الأقطاب على صدره مع قناع الأكسجين والمحاليل .. أما هو فتهاوى تمامًا .. بدا أن الأسد قد أعلن الاستسلام ..

ظللنا واقفين فى الردهة لفترة حتى ظهر الطبيب الكاميرونى ليعلن :

ـ « لا تخافوا .. أعتقد أن الأسوأ قد مر .. »

سألته وأنا أحاول التماسك :

ـ « ماذا حدث بالضبط ؟ .. »

ـ « لا أدرى .. ربما نسى بعض الأدوية .. عندما تكلم عرفنا أنه يتعاطى ترسانة كاملة منها ، كمـا أنه خارج مـن جراحة قلب مفتوح . الإجابة ليست جاهزة بعد .. »

ـ « هل لى أن أراه ؟ »

ـ « أنت تعرف الإجابة .. لا .. بالتأكيد .. »

ـ « لكنى صديقه ! »

ـ « كل واحد فى الوحدة سيقول هذا فى الساعات التالية .. بالطبع لا .. »

كنت أعرف ما لم يقله .. كل واحد فى الوحدة سيقول هذا فى الساعات التالية ... وإلى أن يفرق هو بين الصديق الحقيقى وبين المنافق وبين الفضولى وبين من يريد التشفى ، سيكون بارتلييه قد مات من الإرهاق ..

هكذا ابتعدت وأنا أسب وألعن .. السباب يريح أعصابى فعلاً ..

هنا وجدت أننى أحدق فى عينى كارين التى وقفت تسد الطريق أمامى .. نظرت لها بعينين متسائلتين فقالت :

ـ « علاء ... يجب أن نتكلم فى مكان منفرد .. »

❀ ❀ ❀

فى مسكنها دعتنى كارين للجلوس ، ثم وقفت مفكرة فى مركز القاعة..

كانت تلبس قميصًا من الكاروهات وسروالاً وشعرها منكوش مبعثر ، مما جعلها أقرب لصبى مشاغب منها لسيدة مسنة .. كانت غارقة فى التفكير ثم قالت :

ــ « علاء : ما الذى تعرفه عن كرستيان بوشيه زوج مادلين الثانى ؟ .. »

ما الذى ذكَّرها بهذا الموضوع ؟

على كل حال رحت أحكى لها قصته مع مادلين وقصته مع بارتلييه والخطاب الذى كتبه لصاحبه يحكى كل شىء . اكتئابه .. وقوعه فى الحب .. زواجه .. وفاته ..

قالت وهى تبتسم فى انتصار :

ــ « كنت أتوقع هذا .. »

ثم تربعت على الأريكة وأشعلت لفافة تبغ جذبت منها نفسًا عميقًا وأخرجته .. وتناولت علبة مياه غازية فارغة لتستعملها كمطفأة .. وقالت :

ــ « كرستيان .. المهندس الثرى الذى وقع فى غرام خبيرة تغذية ساحرة رقيقة .. الزوجة قد اكتشفت أن زوجها مصاب بالاكتئاب ويتعاطى عقارًا هو (الماربلان) Marplan ومادته الفعالة هى (آيزوكاربوكسازيد) .. هذا العقار نوع غير شائع من أدوية الاكتئاب ، لأن الأطباء وجدوا أن تفاعلاته الدوائية كثيرة جدًا ... إنه ينتمى لمجموعة العقاقير المسماة MAOI أو (مثبطات الأوكسيديز وحيد الأمين) ... هذه العقاقير فعالة لكنها خطرة .. وقد عرف العلماء مبكرًا أنها تسبب خطرًا داهمًا مع الأطعمة التى تحوى مادة التيرامين .. يسمون هذا بـ (تأثير الجبن) ...

السبب هو أن التيرامين موجود فى الجبن .. جبن الشيدر .. الجبن القديم .. الكرنب المخلل .. السجق .. زيت الصويا .. ونبتة صغيرة يستخدمونها لعلاج الاكتئاب هى نبتة سان جون (العرن) . باختصار موجود فى كل الأطعمة التى حرصت أن يأكلها زوجها ! »

نهضت مندهشًا وقد انتصب شعر رأسى وقلت :

ــ « هل تعتقدين ؟ »

ــ « خبيرة تغذية بارعة شديدة الذكاء ..لماذا تنصح زوجها بأن يأكل هذه الأصناف بالذات برغم أنها تعلم خطرها ؟ .. »

ــ « لكن من يتعاطى عقاقير MAOI يعرف بالتأكيد الأطعمة التى عليه ألا يأكلها .. »

ــ « للأسف ينسى الأطباء كثيرًا جدًا تحذير المرضى .. يمكننا القول بلا خطأ كبير أن مادلين قد رتبت لقتل زوجها بطريقة ذكية .. ولن يستطيع مخلوق أن يتهمها بالقتل .. طبعًا نحن نعرف الآن أن زوجها مات نتيجة ارتفاع شديد فى ضغط الدم فانفجر شريان فى مخه .. »

ثم فكرت بعض الوقت .. لترتب أفكارها وقالت :

ــ « عندما قلنا إن هذه المرأة تتصرف كعنكبوت الأرملة السوداء لم نبتعد عن الحقيقة .. لابد أنها وجدت لعبة الزواج والميراث ممتازة .. وكان عقلها الجبار قادرًا على أن يجد طريقة لقتل كل زوج مريض تقابله .. »

ــ « هل تعنين أن زوجها الأول ...؟ »

قالت ضاحكة :

ــ « طبعًا .. سمعت ملخص القصة من جوزيف قريبه بينما كنت أنت تتسلى بالإسهال فى الحمام ليلتها . مريض ضغط دم ترغمه هى على شرب عرق السوس !.. والتهام الآيس كريم باهظ الثمن . جذور نبات جليسيريزا جلابرا أو عرق السوس تتصرف كالهرمونات تمامًا .. تؤدى لاحتجاز الصوديوم فى الجسم ونقص البوتاسيوم .. أن تحتجز الصوديوم فأنت ترفع ضغط الدم أكثر .. لاحظ أن الآيس كريم غالى الثمن يحوى جرعات هائلة من الصوديوم كذلك . لقد صار هذا البائس كمن يأكل المخللات بلا توقف ... فإذا أضفنا لهذا أن البوتاسيوم قد قل وأنه يتعاطى عقار الديجيتالا فالقصة مكتملة .. ما كانت لديه فرصة للنجاة .. لقد مات بارتفاع ضغط الدم أو اضطراب ضربات القلب بسبب تسمم الديجيتالا .. سيان .. »

كنت أنا أرتجف غير مصدق .. لم أكن أعرف موضوع عرق السوس هذا .. قصة ميشيل بنوا لم أكن أعرفها أصلاً...

لقد جاء الشيطان لوحدة سافارى بعد ما أغرى مديرها ..

قلت لها وأنا ألهث :

ــ « لكنها لم تفعل شيئًا مع بارتلييه .. هو تكفل بمرض نفسه .. »

قالت وهى تضحك بوحشية تشعل لفافة تبغ أخرى :

ــ « من قال هذا يا بنى ؟.. قصته سهلة جدًا .. »

ثم أضافت :

ــ « أنت حكيت لى عن التهامه للجريب فروت طيلة الوقت من أجل خفض الوزن ... هذا أثار ريبتى . الجريب فروت فاكهة خطرة فعلاً لأنها تتفاعل كيميائيًا مع 85 عقارًا معروفًا ، وبعض هذه التفاعلات قاتل .. فيه مواد كيميائية تعرقل أو تزيد من تمثيل مختلف الأدوية .. القائمة طويلة ومخيفة وتتضمن أدوية الكولستيرول مثل أتورفاستاتين .. أدوية تنظيم ضربات القلب مثل كورداورن .. أدوية الضغط مثل نيفيدبين .. الفياجرا .. إلخ .. لابد من أن تكون الفترة الزمانية أربع ساعات على الأقل بين الجريب فروت وأى عقار من هذه القائمة الطويلة .. »

ــ « وهو ما لم يحدث .. »

ــ « بارتلييه أستاذ فيروسات ولا يعرف الكثير عن علم الأدوية ... الناس جميعًا تتعامل مع الجريب فروت باعتباره شيئًا مفيدًا لا يضر .. »

ثم نفثت الدخان ووضعت ساقًا على ساق وقالت :

ــ « هذه المرأة خبيرة تغذية تجيد عملها فعلاً .. وعملها الحالى هو أن تقتل وترث .. فى كل مرة تتزوج زوجًا متقدمًا فى العمر ، وهو بالتالى يتعاطى أدوية لسبب ما .. علمها الغزير يجعلها تعرف الطريقة التى تقتله بها بالغذاء فقط . لا يستطيع أحد أن يتهمها بشىء أو يثبت عليها جرمًا .. لا توجد محكمـــة تدين امـــرأة لأنها قدمت لزوجها الجبن والمورتاديلا ..

أو لأنها تصر على أن يشرب عرق السوس أو يأكل الجريب فروت . أسوأ ما يحدث لها هو أن تتهم بالنحس .. لا مشكلة .. أنا أقبل أن أكون نحسًا إذا تمتعت بثروة ثلاثة رجال أثرياء .. »

سألتها فى قلق :

ـ « وماذا سيحل ببارتليبه ؟ »

ـ « أعتقد أنه سينجو لكن لا يمكن السماح له بالعودة للحياة مع تلك المرأة .. إن فى كمها ألف حيلة وحيلة .. إنها تفهم علم العقاقير جيدًا .. »

14 ـ إنـه الحـب ..

ليلة مزدانة بالنجوم ..

فلتجعل (باليتة) ألوانك زرقاء وخضراء

أزهار مشتعلة تتألق لامعة ..

سحب ملتفة فى ضباب بنفسجى ..

تنعكس فى عينى (فنسنت) الزرقاوين الصافيتين ..

❋ ❋ ❋

هكذا جلس بارتليبه فى الشمس فى حديقة سافارى .. يلبس الروب والخفين ويبدو سعيدًا كطفل برغم كل ما حكيناه له ..

كلما قابله واحد لوَّح له بيده وصاح به أننا نحبك يا سيدى ... بارتليبه الرائع .. لو لم يكن فى حياتنا لاضطررنا لاختراعه ...

كنت أنا جالسًا على العشب أمامه بينما استندت برنادت على مسند مقعده ووقفت كارين ثورنوايلد خلفــه تضــغط على ترقوته الشحيمة فى رفق ، تقول له :

ــ « دكتور بارتلييه .. هذا هو ما أستطيع قوله .. »

قلت أنا على الفور :

ــ « لا نريد أن نرهقك فأنت ما زلت فى النقاهة .. لكننا قلقون عليك جدًا .. الأمر عاجل كما ترى .. »

وقالت برنادت :

ــ « القصة منطقية وواضحة .. مادلين بارعة لكنها صادفت عبقرية أخرى هى كارين .. لقد كانت ريحًا فصادفت إعصارًا . هذا هو صدام الجبابرة فعلاً .. »

قالت كارين فى تواضع :

ــ « لست عبقرية .. أنا أعرف علم الفارماكولوجى جيدًا .. هذا كل شىء .. »

ثم نظرت لبارتلييه الغارق فى همومه وقالت :

ــ « لقد نجوت بمعجزة .. لكن عليك أن تتخذ قرارًا .. أعتقد أن الطلاق هو الحل الأمثل... لا يمكن أن نثق ببقائك معها يومًا آخر .. »

هززت رأسى موافقًا ...

وفجأة رأيناها تمشى هناك من بعيد .. لم تنظر لنا .. كانت شاردة الذهن تضم أطراف التايور الذى تلبســه وتنظر للأرض . لو رأتنـــا لخمنت ما نقول .. أخاف هذه المرأة كثيرًا وأشعر أنها تعرف كل شىء ..

ــ « لا ! »

قالها بارتلييه فنظرنا له فى حيرة ..

أردف بإصرار :

ــ « لا !... لن أطلقها .. أعترف أن كلامكم منطقى ، لكننى سأعطيها مزية الشك .. لن أطلقها .. الحقيقة هى أننى أحبها فعلاً ، وقد أعادت الحياة لى . كل شىء فى عالمى قد تغير منذ ظهرت .. لا أستطيع التخلى عنها .. تقولون إنها ستفتك بى .. أى أننى سأموت ، بينما التخلى عنها سوف يحدث الشىء ذاته .. لقد مات زوجاها السابقان سعيدين منتشيين بالحب .. وهذه ميتة تختلف كثيرًا عن الميتة الباردة الوحيدة التى تنتظرنى هنا .. »

هتفت كارين غير مصدقة :

ــ « لكنها لن تتخلى عن .. »

ــ « يمكن ألا أذوق الجريب فروت للأبد .. »

قالت برنادت متوسلة :

ــ « لن يتوقف الأمر على هذا .. فى جعبتها ألف حيلة وحيلة .. إنها بارعة كالشيطان ولسوف تبتكر طريقة أخرى للفتك بك .. وكما فى كل مرة لن يجسر أحد على اتهامها .. »

فى عناد قال :

ــ « لا أهتم كثيرًا .. قلت إننى أحبها .. هذا كاف .. »

موقفه محير وعنيد ومستفز .. عناد أطفال ..

أن تعيش مع قاتلتك لمجرد أن هذا يبدو رومانسيًا فهو سلوك مراهق أقرب لقصص جوته أو الرومانسيين الفرنسيين ، لكن من الصعب أن تفكر فيه فى الواقع ..

ــ « وهل ستعود لتقيم معها فى ذات المسكن ؟ .. »

ــ « لم لا ؟ .. »

ثم أضاف وهو يحك رأسه :

ــ « سـوف أكلف ماجـدا بالطبـخ .. لن أترك مادلين تدخـل المطبخ أبدًا .. »

ــ « سوف تجد طريقة أخرى .. »

ــ « إلى أن تجد هذه الطريقة سأكون قد ظفرت ببعض السعادة .. »

تبادلنا النظرات وأدركنا أنه لا يوجد حل .. لن نهتم بحياة الرجل أكثر منه .. فلنتركه ولندع الله أن يظل حيًا ..

❋ ❋ ❋

فى اليوم الأخير لها هنا ، ودعنا كارين وداعًا مؤثرًا .. أعرف يقينًا أننا لن نلتقى ثانية برغم أنها كررت ألف مرة أننا سنلتقى فى الولايات يومًا ما . قدمت لى مجموعة محاضراتها كهدية ، بينما قدمنا لها أنا وبرنادت كعكة أخرى من كعك برنادت شنيع المذاق .

قالت لى كارين :

ــ « شكرًا لك .. كانت بدايتنا سيئة ثم وجدت أنك صديق مخلص .. »

قلت لها شبه دامع :

ــ « شكرًا على كل شىء .. لقد كنت صديقًا وفيًا قل أن نجده .. حتى فى الانتقام .. »

قالت وهى تنظر حولها فى حذر :

ــ « لا تقلقوا على المدير .. الأرملة السوداء سترحل لفرنسا غدًا .. »

ــ « كيف فعلت ذلك ؟ »

ــ « خطاب تهديد .. كتبت لها كل شكوكى ، ثم قلت إن نسخة من هذا الخطاب ستكون عند المدعى العام عندهم لو لم تطلب من زوجها العودة لباريس .. »

ــ « وهل يملك المدعى العام شيئًا ؟ »

ـ « لا .. لكنها لا تريد الشوشرة .. وقد أصرت على الرحيل حتى وافق بارتلييه . لن تكون هناك ألعاب قاسية لفترة وسوف تظل زوجته على كل حال .. عنـــدما يذهب لزيارتها فى الإجـــازة ربما تقرر لعب لعبـــة جديدة أو يكون هو قد شفى من مشروب الحب السحرى .. »

ثم أضافت وهى تداعب ذقن برنادت بطرف أناملها :

ـ « سوف يصاب بارتلييه باكتئاب شديد .. عليكم أن تحيطوا به ولا تتركوه لنفسه لحظة .. فإذا تعاطى دواء اكتئاب فلتمنعوا عنه الجبن وفول الصويا ! »

ثم إنها نهضت خارجة .. على الباب وجدت أمامها مادلين ..

وقفت المرأتان تتبادلان النظرات للحظات ، ثم ناولتها مادلين حرامًا صغيرًا على سبيل الهدية . ونظرت لها فى عينيها للحظة وقالت شيئًا ثم ابتعدت ..

بصوت هامس قالت كارين وهى تتشمم الحرام فى شك :

ـ « حرامات الجدرى التى أبادوا بها الهنود عندنا ! »

« الآن أفهم ما حاولت أن توصله لى ..

كيف كافحت لتحتفظ بعقلك ..

كيف حاولت أن تحرر هؤلاء لكنهم ما كانوا ليصغوا ..

ربما سيصغون لك الآن .. »

لم تنته القصة هكذا ... بارتلييه سوف يغمره الشوق فيذهب إلى باريس عما قريب ، ليشفى هذه المراهقة المتأخرة .. ترى هل من لعبة جديدة أعدتها له ؟

للأسف هذا ليس ضمن نطاق عملنا فى سافارى .

د. علاء عبد العظيم
أنجاوانديرى

تمت بحمد الله



روايات مصرية
مغامرات طبيب شاب يجاهد كي يظل حيًا وكي يظل طبيبًا
سافاري 50

د. أحمد خالد توفيق

قصة بوليسية

هذه قصة بوليسية ، ولأنها قصة بوليسية فنحن لا نستطيع أن نتكلم على الغلاف الأخير أكثر من اللازم وإلا لفسد الأمر كله .

هذه قصة بوليسية ولأنها كذلك فلا مجال للشرح أكثر .

هذه قصة بوليسية فلا تترقب أن تقرأ الإلياذة أو الحرب والسلام.. ما نريده هنا هو قضاء وقت ممتع لا أكثر ..

لماذا ؟ لأنها قصة بوليسية .

الكتيب القادم

عودة ساحرة الأفاعي



المؤسسة العربية الحديثة

الثمن في مصر 7 جـ
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم